



دكتور محمود أحمد حسن المراغي

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

كلية الآداب - جامعة بيروت العربية

في البلاغة العربيّة

المرادفات



Bibliotheca Alexandrina

0090898



عِلم البَدِيع

في البلاغة العربيّة علم البديع

دكتور محمود أحمد حسن المراغي^{الأب}
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية
كلية الآداب - جامعة بيروت العربيّة





دار العلوم العربية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ ١٩٩١ م

الناشر

دار العلوم العربية

للطباعة والنشر

مقابل جامعة بيروت العربية
بنية عنان

هاتف: ٣٠٧١٧٣

ص ب: ٩٥٣٥ - ١١

بيروت - لبنان

مقدمة

بعلم البديع يكتمل مثلث علوم البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، وهي علوم تتحرى مواطن الصحة والحسن في كلام العرب شعره ونثره ، من حيث المعاني والألفاظ في علاقاتها ومواقعها من الكلام ، لذا كان لزماً على دارس اللغة العربية وآدابها أن يصيب قدرًا من معرفة هذه العلوم ، يكون له عوناً على أداء ما يرتجى منه في ميدانه الذي اختاره .

إذ تنهض دراسة العربية وآدابها على ركائز أساسية ، من أهمها حسن التدقيق ، والقدرة على البيان والتبيين والحكم ، وهما مدار علوم البلاغة عام .

ولما كان علم البديع منوطاً به إظهار ما في كلام العرب من جمال وحسن فإن علماء الذين تصدوا لتقنيته ابتداءً من ابن المعتز وقدامة وأبي هلال ومن تلاهم ، قد استبانوا منه ما ينيف على المائة نوع ، استظهروها من كلام العرب منظومه ومشوره ، قديمه وحديثه الذي عاصروه وعالجوه ، وكان القرآن الكريم والحديث الشريف خير مثل وأسمى مثال لهم في درسه البديعي . ثم كلام العرب المنظوم والمنثور ، القديم منه والحديث .

ولما كانت أنواع البديع التي قننها علماءه ووضعوا لكل منها مصطلحه وشرطه مما يصعب على الطالب أن يلم بها جميعاً ، فقد اقتصرنا على عرض أهمها في غير إيجاز مخل ، ولا إسهاب ممل ، مقدمين لها بتعريف علم البديع ورواده وأهم علمائه ، مشيرين إلى مواضع بعض أنواعه في كلام العرب القدماء ، والمحدثين بالنسبة لهؤلاء الرواد .

وحتى يتاح للطالب أن يتصل بتراته ، فقد ذيلنا ما تم تقديمه من أنواع

البديع ، ببعض صفحات كتاب عالم من علماء البلاغة - وإن لم يكن من روادها
الأوائل - وهو الخطيب القزويني في كتابه الموسوم بـ (الإيضاح في علوم البلاغة)
حتى يتسنى للقارئ أن يتعرف على أسلوب السلف . بالقدر الذي يمهد له السبيل
على مصاحبته بعد ذلك . والله أسأل العون وعميم الفائدة .

د . محمود أحمد حسن المراغي

بيروت في ١٥ / ١٢ / ١٩٨٨

الفصل الأول

علم البديع وأهم رواده

١ - البديع لغة واصطلاحاً

٢ - ظهور علم البديع وأهم رواده

معنى البديع لغةً واصطلاحاً :-

مما أورده ابن منظور في لسان العرب حول معنى كلمة بديع : « بَدَعَ الشيء يَبْدَعُه بَدْعاً وَابْتَدَعَه : أنشأه وبدأه ، وَبَدَعَ الرُّكِيَّة : استنبطها وأَخَذَهَا ، والبديعُ : المحدثُ العجيبُ ، وَأَبْدَعْتُ الشيءَ : اخترعته لا على مثال ، والبديعُ من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها ، ويجوز أن يكون بمعنى مُبْدِع ، أو يكون من بَدَعَ الخلق أي بدأه ، والله تعالى - كما قال - بديع السموات والأرض ، أي خالقهما ومُبدِعُهُما ، فهو سبحانه الخالقُ المخترعُ لا عن مثالٍ سابقٍ ، وسقاء بديعٌ : جديدٌ ، وكذلك زمامٌ بديعٌ ، وَحَبْلٌ بديعٌ : جديدٌ » .

فبذلك نرى أن كلمة (بديع) يدور معناها اللغوي حول الجديد والمُحدثِ ، والمُخترَعِ .

أما البديع اصطلاحاً ، فإن بينه وبين المعنى اللغوي ، صلة قريبة سوغت التسمية ، وأجازت الإطلاق .

فمن تعريفات بعض العلماء نذكر تعريف الخطيب القزويني لمصطلح البديع بقوله^(١) : (هو عِلْمٌ يُعرف به وجوهُ تحسين الكلام ، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة) .

ويقول ابن خلدون^(٢) : (هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من

(١) الإيضاح ص ٤٧٧ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٦٦ .

التمثيق ، إما بسجع يفصله ، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه ، أو ترصيع أوزانه ، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما ، أو طباق بالتقابل بين الأضداد ، وأمثال ذلك) .

وإذا كان ابن خلدون في تعريفه قد أورد بعض أنواع البديع ، فإن حاجي خليفة في تعريفه للبديع يبين قيمته بين علوم البلاغة العربية فيقول^(١) : (هو علم يُعرف به وجوه تفيد الحسن في الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى المقام ، ووضوح الدلالة على المرام ، فإن هذه الوجوه إنما تُعدُّ محسنة بعد تينك الرايتين ، وإلا لكان كتعليق الدر على أعناق الخنازير ، فمرتبة هذا العلم بعد مرتبة علم المعاني والبيان ، حتى أن بعضهم لم يجعله علماً على حدة ، وجعله ذيلاً لهما ، لكن تأخر رتبته لا يمنع كونه علماً مستقلاً ، ولو اعتبر ذلك لما كان كثير من العلوم علماً على حدة فتأمل) .

أما الجاحظ فإنه يقصر البديع على العرب ، ويجعله سبب تفوق لغتهم على سائر اللغات^(٢) : (والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة) .

وقد أطلق عبد العزيز الجرجاني ، ومن بعده ابن رشيق على ألوان البديع اسم الحُلَى ، يقول الجرجاني^(٣) : (وقد يمتنع بعض الأدباء من تسمية بعض ما ذكرناه بديعاً ، لكنه أحد أبواب الصنعة ومعدود في حُلَى الشعر) .

أما ابن رشيق فيقول في معرض حديثه للمثل السائر^(٤) : (وهذه الأشياء في الشعر ، إنما هي نبذ تستحسن ، ونكت تستظرف مع القلة وفي الندرة ، فأما إذا كثرت فهي دالة على الكلفة ، ولا ينبغي للشعر أن يكون أيضاً خالياً مغسولاً من هذه الحلى فارغاً) .

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٤٨ .

(٢) البيان والتبيين ج ٤ ص ٥٥ .

(٣) الوساطة ص ٤٨ .

(٤) العمدة ج ١ ص ٥٥ .

مما سبق نفهم أن مصطلح (البديع) يدور معناه حول التحسين والتزيين في اللفظ والمعنى ، فحسن اللفظ من حيث الجرس الصوتي وحسن الكلمة من حيث أدائها لمعناها ، ويزداد حسن أداء الكلام لمعناه بتأثير الرنين الصوتي كما يتضح في الجناس والسجع والترصيع والتصريع ، وغير ذلك من ألوان البديع ، ولتحقيق الجمال والحسن في هذه الأنواع لا بد أن يتحقق الاتصال بالمعنى دائماً ، إذ انقطاع هذا الاتصال يؤدي إلى فساد البديع فيصبح مردوفاً غير مقبول . لذلك كانت وجوه التحسين راجعة إلى تحسين المعنى أصالة مع تحسين اللفظ تبعاً ، أو راجعة إلى تحسين اللفظ ، ومن هنا قسم البلاغيون أنواع البديع إلى قسمين رئيسيين هما : المحسنات المعنوية ، والمحسنات اللفظية :

ظهور علم البديع وأهم رواده :-

من المعروف أن ابن المعتز (٢٩٦ هـ) كان أول واضع لعلم البديع ، وأسبق من ألف فيه ، وأول من أعطى مؤلفه اسم (البديع) وحدد معالمه بوضوح وجلاء ، وعبّد نهجه للسالكين فيه من بعده .

غير أن هناك محاولات وإشارات سبقت ابن المعتز ، وإن كانت غير محددة المعالم ، اختلطت فيها بعض ألوان البديع ببعض أنواع غيره من البيان ، فقد وضع مسلم بن الوليد - المتوفي سنة ٢٠٨ هـ - مصطلحات لبعض الأنواع البيانية والمحسنات اللفظية والمعنوية كالجناس والطباق .

والجاحظ - المتوفي سنة ٢٥٥ هـ -

يشير إلى البديع في (البيان والتبيين)^(١) محدداً أهم شعرائه فيقول :
(والبديع مقصور على العرب^(٢)) ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل

(١) ج ١ ص ٥٥

(٢) ويرى بروكلمان وغيره من المستشرقين غير ما قرره الجاحظ ، إذ يقول بروكلمان : (لئن لم يستطع العجم في هذا العصر أن يقدموا نماذج خاصة بهم في شعر الغناء ، فقد تغلغت أناقة التعبير ورقة الذوق التي اختصوا بها ، في أساليب الشعر البدوي باطراد) انظر (تاريخ الأدب العربي) ج ٢ ص ٨ .

لسان ، والشاعر (الراعي) كثير البديع في شعره ، و (بشار) حسن البديع ،
(العتابي) يذهب في شعره في البديع مذهب بشار) .

غير أن الجاحظ لم يضع للبديع مصطلحات أو تعريفات علمية ، ولم يدقق
في توضيح الصور والمحسنات اللفظية والمعنوية التي يعنها لفظ البديع عنده ،
ولم يضع لها قواعدها ، بل كان حسبه أن يقدم النماذج والأمثلة لهذه المحسنات .

أما ابن المعتز - المتوفي سنة ٢٩٦ هـ -

فإنه أول من قام بجهد علمي جاد في تأسيس علم البديع ، ووضع
المصطلحات العلمية لفنونه التي اهتمت بها من جاءوا بعده فارتضوها وزادوا
عليها ، ورسخت أقدامهم في ميدانها .

وابن المعتز سليل أسرة الخلافة العباسية ، فهو عبد الله بن المعتز ابن
المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد ، وكان مولده سنة ٢٤٧ هـ - وقد ولى ابن
المعتز الخلافة ولم تدم أكثر من يوم وليلة ، ثم مات مقتولاً سنة ٢٩٦ هـ . وابن
المعتز إلى جانب كونه عالماً ، كان أديباً أريباً ، وشاعراً مرهف الحس ، سهل
اللفظ ، صافي القريحة ، لطيف الصنعة ، مما جعل أسلوبه العلمي في التأليف
أبعد ما يكون عن تعقيد العلماء ، وميلهم إلى الاستقصاء والتحليل .

كتاب البديع وموضوعاته :-

هو أول كتاب علمي في البديع ، لم يسبقه في ميدانه غيره ، وكان تأليفه
سنة ٢٧٤ هـ . يقول ابن المعتز^(١) : (ما جمع قبلي فنون البديع أحد ، ولا
سبقني إلى تأليفه مؤلف ، ومن أراد أن يقتصر على ما اخترعناه فليفعل ، ومن رأى
إضافة شيء من المحاسن إليه فله اختياره) . ثم يقول : (وألفته سنة أربع وسبعين
ومائتين) .

وقد جمع ابن المعتز في كتاب البديع ثمانية عشر نوعاً من أنواع البديع^(٢) ،

(١) كتاب البديع ص ٥٨ .

(٢) يذكر الحملاوي أنها سبعة عشر نوعاً - زهر الربيع ص ١٥٧ .

قسمها إلى قسمين : أولهما جمع فيه خمسة أنواع سماها باسم البديع ، عالج فيها الأصول الكبرى للبديع كما يراها ، وهذه الخمسة هي : الاستعارة - التجنيس - المطابقة - رد الأعجاز على ما تقدمها - والنوع الخامس هو المذهب الكلامي الذي أسند ابن المعتز تسميته إلى الجاحظ قائلًا^(١) : (وهذا باب ما أعلم أنني وجدت في القرآن منه شيئاً ، وهو ينسب إلى التكلف ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) .

أما القسم الثاني من كتاب البديع فقد أطلق عليه ابن المعتز اسم (محاسن الكلام) وقد نص ابن المعتز على كثرة هذه المحاسن ، وأنه لا ينبغي لأحد ادعاء الإحاطة بها فيقول بعد أن ذكر الخمسة الأصول السابقة^(٢) : (ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ، ومحاسنها كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعى الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره) .

وقد ذكر ابن المعتز من هذه المحاسن ثلاثة عشر نوعاً في القسم الثاني من كتابه ، وهي :

١ - الالتفات : وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك .

٢ - الاعتراض : وهو اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه ثم يعود إليه فيتممه في بيت واحد .

٣ - الرجوع : وهو أن يقول شيئاً ويرجع عنه .

٤ - حسن الخروج من معنى إلى معنى أو الاستطراد كما سماه أبو تمام .

٥ - تأكيد المدح بما يشبه الذم .

٦ - تجاهل العارف وهو ما أسماه المتأخرون بالإعانات والتشكيك .

٧ - هزل يراد به الجدل .

٨ - حسن التضمين .

٩ - التعريض والكتابة .

(١) كتاب البديع ص ٥٣ .

(٢) نفسه ص ٥٨ .

- ١٠ - الإفراط في الصفة وهي المبالغة .
 ١١ - حسن التشبيه .
 ١٢ - إعنات الشاعر نفسه في القوافي ، وتكلفه من ذلك ما ليس له وهو ما سماه المتأخرون لزوم ما لا يلزم .
 ١٣ - حسن الابتداءات .
 وبهذه الأنواع الثلاثة عشر يكون ابن المعتز قد جمع في كتاب البديع - بالإضافة إلى الخمسة الكبرى الأولى - ثمانية عشر نوعاً من أنواع البديع .

- قدامة بن جعفر - المتوفي سنة ٣٣٧ هـ -

وكان كما يقول الحموي^(١) نصرانيا وأسلم على يد المكتفي بالله ، وكان متنوع العلوم والمعرفة في اللغة والأدب والفقه والكلام ، وقد درس الفلسفة والمنطق ، وكان لهما تأثير واضح في تفكيره ومنهج كتبه الكثيرة التي يهتما منها هنا :

كتاب نقد الشعر :-

ويختلف كتاب (نقد الشعر) لقدامية عن (كتاب البديع) لابن المعتز في أن الأول في نقد الشعر بعامة ، وجاء البديع فيه قسماً من أقسامه ، عالج فيه المحسنات البديعية في الشعر ، أما كتاب ابن المعتز فهو كله مقصور على البديع . كما أن كتاب البديع - كما أسلفنا - خلا أسلوبه من تعقيد العلماء واستقصاءاتهم وتحليلاتهم ، وغلب على أسلوبه نزعة مؤلفه الأدبية ، وحسه الشعري الرقيق بالفاظه السهلة ، أما (نقد الشعر) فقد شاعت فيه ثقافة قدامة وعلمه ، فالفلسفة والمنطق - على وجه الخصوص - لهما أثرهما الواضح في منهج بحثه .

وقد بلغت أنواع المحسنات البديعية في كتاب قدامة أربعة عشر نوعاً ، التقى مع ابن المعتز في خمسة منها هي : المبالغة والالتفات ، وثلاثة آخر لم يخلتفا فيها الا في المسمى الاصطلاحي فقط وهي :

(١) معجم الادباء ح ١٧ ص ١٢ .

(الاعتراض) عند ابن المعتز وسماه قدامة (التميم) ، و (الطباق) وسماه قدامة (التكافؤ) ، و (رد أعجاز الكلام على ما تقدمها) وسماه قدامة (التوشيح) .

أما التسعة الأنواع الأخرى عند قدامة فهي جديدة من اختراعه ، وهي :
الترصيع - الغلو - صحة التقسيم - صحة المقابلات - صحة التفسير - الإشارة -
الإرداف - التمثيل - الإيغال .

وإذا كان بعض سابقة قد أشار أو ألمح إلى شيء من هذه الأنواع (كالتمثيل) عند الجاحظ وهو (المثل) عند أبي عبيدة والمبرّد ، فإن قدامة أول من قننها علماً ، وجعلها مصطلحاً بديعاً .

كما ينسب إلى قدامة أنه أول من نبه إلى تقسيم ألوان البديع إلى معنوي ولفظي . وقدامة ومعاصره ابن المعتز يرجع إليهما الفضل في الاهتداء إلى ما عرف من أنواع البديع السبعة والعشرين .

أبو هلال العسكري - المتوفي سنة ٣٩٥ هـ -

عاصر أبو هلال العسكري قدامة بن جعفر ، ومات بعد قدامة بأكثر من خمسين عاماً ، والعسكري نسبة إلى مدينة (عسكرمكرم) من كور الأهواز بين البصرة وفارس .

ومنهج العسكري يقترب من منهج ابن المعتز من حيث سهولة الأسلوب ، والبعد عن تعقيد وتعميق العلماء وتحليلاتهم ، ذلك لأن ثقافة أبي هلال واهتماماته تتشابه إلى حد بعيد مع ما كان عليه ابن المعتز من ثقافة وأدب . وكتابات أبي هلال تشهد على تفوقه في الأدب وعلوم العربية كاللغة والنحو والصرف والعروض ، وصناعة الشعر ، وأخبار العرب وأنسابهم ، والبلاغة والتفسير والنقد .

كتاب الصناعتين :

وهو أشهر كتب أبي هلال التي وصلت إلينا ، واسم الكتاب بالكامل هو (كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر) وبهذا الكتاب يكون لأبي هلال فضل سبق

في معالجة صنعة الشر ، إلى جانب صنعة الشعر التي تكاد تكون جهود سابقه مقصورة عليها في معالجة البديع . ولهذا أطلق على كتابه اسم الصناعتين .

ويتميز كتاب الصناعتين أيضاً بأنه أول كتاب بدت فيه مباحث علوم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، كما عرفها المتأخرون بوضوح .

كما أن قارئ كتاب الصناعتين (يدرك - على حد قول الدكتور أحمد ابراهيم موسى^(١)) من أول وهلة ، مبلغ مباينة أبي هلال من سبقه بالتأليف في علم البديع مستقلاً أو تابعاً للنقد ، حيث عقد باباً من الأبواب العشرة خاصاً بالبديع سرد فيه ستة وثلاثين نوعاً ، لم يكن من بينها التشبيه ، وقد عدده معها ابن المعتز وقدامة ، كما لم يكن بينها مقاطع الكلام ومبادئه ، وقد بحث المبادئ ابن المعتز ضمن ألوان البديع ، وكذلك لم يكن بينها السجع والازدواج ، وقد عرض قدامة للسجع في أثناء حديثه عن الترصيع ، ذلك هو الجديد في صنيع أبي هلال بالبديع على جهة العلوم) .

وإذا كان أبو هلال أول من كشف عن صورة المثلث البلاغي كاملة بحديثه عن المعاني والبيان إلى جانب البديع الذي سبقه بالحديث عنه ابن المعتز وقدامة ، فإن حدود المثلث البلاغي لم تتكافأ تماماً مع تعريفات المتأخرين لعلوم البلاغة الثلاثة ، وذلك بأنه اعتبر الاستعارة والكتابة والاعتراض والتذييل من أنواع البديع ، مع أن الاستعارة والكتابة من أبواب علم البيان ، والاعتراض والتذييل - وهما من أساليب الإطناب - نوع من أنواع علم المعاني .

وأنوات البديع التي أوردها أبو هلال في كتاب الصناعتين ، وعددها ستة وثلاثون نوعاً ، اهتمى هو نفسه غير مسبوق إلى ستة أنواع منها ، يقول^(٢) : (وزدت على ما أورده المتقدمون ستة أنواع : التشطير والمحاور والتطريز والمضاعف والاستشهاد والتلطف) ثم أشار إلى أنه اهتمى إلى نوع سابع من أنواع

(١) الصبغ البديعي ص ١٦٠ .

(٢) كتاب الصناعتين ص ٢٦٧ .

البديع أطلق عليه اسم المشتق^(١) . كما قام بتشذيب وتهذيب ما اهتدى إليه من سبقه في ألوان البديع .

ابن رشيق القيرواني (٣٩٠ - ٤٥٦ أو ٤٦٤ هـ)

هو أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، تعلم وهو صغير حرفة الصياغة ، وكانت صنعة أبيه المملوك الرومي ، وحصل قدراً من الأدب والشعر ، ثم ارتحل من بلده المحمدية إلى القيروان ، وهو في السادسة عشرة من عمره ، استزادة في العلم ، ومجالسة العلماء والأدباء ، حتى صار من بلغاء القيروان المعدودين ، وشعرائها المجيدين ، وعلمائها المدققين ، أفاد من شيوخه ومن سلفه ، وأثر في تلاميذه ومن خلفه ، وقد تحقق ذلك في أشهر كتبه :

كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه : -

وقد حرص ابن رشيق على أن يكون عنوان كتابه مرآة صادقة لما حواه ، إذ جمع فيه محاسن ما قاله سابقوه في الشعر ونقده وتصنيفه ، وأشار إلى ما للشعر من المكانة وعظم المزية ، وشرف الأبية ، وعز الأنفة ، وسلطان القدرة ، وأردف ذلك بما يكشف عن منهج كتابه في دراسة الشعر قائلاً^(٢) :

(ووجدت الناس مختلفين فيه ، مختلفين عن كثير منه ، يقدمون ويؤخرون ، ويقللون ويكثرون ، قد بَوَّهوا أبوباً مبهمه ، ولقبوه ألقاباً مبهمه ، وكل واحد منهم قد ضرب في جهة ، وانتحل مذهباً هو فيه إمام نفسه وشاهد دعواه ، فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتاب ، ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه إن شاء الله تعالى) ثم يقول : (وعولت في أكثره على قريحة نفسي ، ونتيجة خاطري ، خوف التكرار ورجاء الاختصار ، إلا ما تعلق بالخبر وضبطته الرواية ، فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه ، ليؤتى بالأمر على وجهه ، فكل ما لم أسنده إلى رجل معروف ، ولا أحلت فيه على كتاب بعينه فهو من ذلك ، إلا أن يكون متداولاً بين العلماء ، لا يختص به واحد منهم دون

(١) السابق ص ٤١٦ - ٤١٧ .

(٢) العمدة ج ١ ص ٤ .

الآخر ، وربما نحلته أحد العرب ، وبعض أهل الأدب ، تسترا بينهم ووقوعاً دونهم ، بعد أن قرنت كل شكل بشكله ، ورددت كل فرع إلى أصله ، وبيئت للناشئ المبتدئ وجه الصواب فيه ، وكشفت عنه لبس الارتياب ، حتى أعرف باطاله من حقه ، وأميز كذبه من صدقه) .

وقد أثارت جودة كتاب العمدة وعظمته حفيظة بعض النافثين على ابن رشيق ، فأنشأ بعضهم كتباً ورسائل ينقدونه فيها ، وينبهون على أغلاطه ، من تلك رسائل أبي عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد القيرواني ، وكان شاعراً أديباً معاصراً لابن رشيق ، ومنهم الأعلام الشنتمري الذي ذكر المقرئ أن له كتاباً في مختصر كتاب العمدة والتنبيه على أغلاطه^(١) .

وقد وصف ابن رشيق هؤلاء النافثين عليه بأنهم (من الحفاث قد صاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين) .

ويتكون كتاب العمدة من جزئين يشملان قرابة مائة باب ، جمع فيها ابن رشيق محاسن ما ارتضاه مما تناوله سابقوه ، في صناعة الشعر ، أضفى عليها - في تصنيفها وتبويبها - ما ينم عن علمه وثقافته ووعيه .

وعقد ابن رشيق في كتابه قسماً خاصاً بالبديع صار عمدة لمن جاء بعده في هذا الميدان ، حيث أجاد تصنيفه ، وتهذيب ما تناوله سابقوه ، وانفرد ببعض أنواع البديع التي لم يسبقه إليها أحد وهي : التورية ، والترديد ، والتفريع ، والاستدعاء ، والتكرار ، ونفى الشيء بإيجابه ، والاطراد ، والاشتراك ، والتغاير .

- ابن سنان الخفاجي - المتوفي سنة ٤٦٦ هـ -

هو الأمير أبو محمد عبد الله محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي ، عاصر ابن رشيق ، ولكن الشواهد تدل على عدم التقائهما ، إذ لم يتحدث أحد منهما عن الآخر في كتابه ،

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٤٣٥ .

وابن رشيق مغربي قيرواني ، وابن سنان مشرقي حلبي ،
ومن أهم مراجع ابن سنان التي أشار إليها واستعان بها من كتب السابقين :
كتاب نقد الشعر لقدامة ، والموازنة للأمدي ، والوساطة للجرجاني ، والجامع في
علم القرآن للرماني ، والبيان والتبيين للجاحظ ، ومن أبرز شيوخه أبو العلاء
المعري .

وبالرغم من إشارة ابن سنان إلى كتب سابقيه ، واستعانه بها ، فإنه لم
يقلدها في منهاجها ، بل كان له منهجه الخاص ، واستقلاله في الرأي ، وبعده عن
التقليد والتبعية ، لذلك كان في كثير من المسائل غير مسبوق ، يقول^(١) :
(شرحت من حال اللفظ بانفرادها ، وما يحسن فيها ويقبح ، ما اعتمدت
في تلخيصه وإيضاحه على أنني لم أرجع فيه إلى كتاب مؤلف ، ولا قول يروي ،
ولا وجدت ما ذكرته مجموعاً في مكان ، وإنما عرفت بالدربة ، وتأمل أشعار
الناس ، وما نبه أهل العلم في إثباتها) .

أما دراسته للبديع فقد تأثر فيها إلى حد بعيد بمنهج قدامة وطريقته في (نقد
الشعر) وتابعه في كثير من تعاريفه ومصطلحاته . وكتاب ابن سنان الذي يهمننا في
هذا الصدد هو كتاب :

سر الفصاحة : (٤٥٤ هـ)

وقد عالج فيه فصاحة اللفظ منفرداً ، وفصاحته مع غيره من الألفاظ ، وجعل
لذلك شروطاً فقال^(٢) :

(وتلك الشروط تنقسم قسمين : فالأول منها يوجد في اللفظة الواحدة على
انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ وتؤلف معه ، والقسم الثاني يوجد
في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض) .

وأما أنواع البديع في كتاب (سر الفصاحة) فهي الأنواع نفسها التي طرحها

(١) سر الفصاحة ص ٨٥ .

(٢) السابق ص ٦٠ .

سابقوه في كتبهم ، غير أن ابن سنان كان الرائد الثاني في شيئين : أولهما أنه كان التالي مباشرة لأبي هلال في عرضه لحسن التعليل ، وكان ثالثهما عبد القاهر الجرجاني الذي أطلق على حسن التعليل اسم (التخييل) وقسمه إلى أنواعه المعروفة التي نقلها عنه صاحب التلخيص^(١) .

- عبد القاهر الجرجاني : - المتوفي سنة ٤٧١ هـ -

عالم متميز فذ ، ناقد لا يشق له غبار ، نحوى ناب ، بلاغي متفرد ، متكلم أشعري المذهب .

راعه ما انتهى إليه أمر المشتغلين بصناعة الكلام في عصره من الكتاب والشعراء والنقاد ، وقد سيطر عليهم سحر الألفاظ وبهرجها فأسقطوا المعاني من حسابهم أو كادوا ، فانبرى يقيم موازين الكلام كما ينبغي ، فأعاد للمعاني مكانتها الضائعة ، وجعل لها الصدارة على الألفاظ ، إذ الألفاظ وحدها لا تفيد إلا إذا انتظمت في تركيب بعينه .

ونظرية النظم التي اهتدى إليها في دلائل الإعجاز تقوم على ألا مزية ذاتية للألفاظ في الكلام من حيث هي ألفاظ ، وإنما المزية تأتي دائماً من قبل التراكيب وصورة نظمها وتأليفها . يقول في مقدمة الأسرار مشيراً إلى أن أشرف أنواع الكلام ما كان فيه أجلى وأظهر ، وأن ذلك لا يتأتى باللفظ وحده^(٢) : (ومن هنا يبين للمحصل ويتقرر في نفس المتأمل ، كيف ينبغي أن يحكم في تفاضل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان ، ومن البين الجلي أن التباين في هذه الفضيلة ، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة ، ليس بمجرد اللفظ ، كيف والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب) .

ومما سبق فيه عبد القاهر عصره ، أنه نبه في أسرار البلاغة إلى ضرورة عدم

(١) الصغ البديعي ص ٢١٧ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٣ .

اغفال الجانب النفسي عند التعرض لعنصر الجمال في الصور الفنية، إذ أن فكرة النظم وحدها غير كافية للكشف عن هذا العنصر الجمالي^(١) ويرى ذلك متمثلاً في التجنيس والحشو من أغراض البديع فيقول^(٢) :

(وها هنا أقسام قد يتوهم في بدء الفكرة ، وقبل إتمام العبرة ، أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجي فيه العقل النفس ، ولها إذا حق النظر مرجع إلى ذلك ، ومنصرف فيما هنالك ، منها التجنيس والحشو) .

ولعبد القاهر الجرجاني مصنفات كثيرة في النحو، والعروض، والتفسير، واعجاز القرآن، والنقد والبلاغة، غير أن الذي شاع وذاع منها، كتاباه العظيمان :

أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز :

ولم يكن كلا الكتابين أو أحدهما خاصاً بعلم البديع ، ولا أفرد عبد القاهر في أحدهما باباً للبديع ، بل جاء (أسرار البلاغة) في علم البيان و(دلائل الإعجاز) في علم المعاني .

ولم يكن إغفال عبد القاهر معالجة علم البديع عجزاً منه أو تقصيراً ، بل تناول منه ما يخدم البيان والمعاني ، ويعضد فكرة النظم عنده ، فاقصر على الجنس والسجع وحسن التعليل ، مشيراً أحياناً إلى الطباق والمبالغة ، مستظهراً بذلك تفوق أهمية المعاني على الألفاظ ، فهو يقول في مقدمة الأسرار - وقد عدّ الاستعارة من البديع كما فعل بعض سابقيه^(٣) - (وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع ، فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني ، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب ، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب) .

وإذا كان ابن المعتز يعتبر من علامات القرن الثالث مؤسساً لعلم البديع ،

(١) أنظر في ذلك : من الوجهة النفسية . . . للأستاذ محمد خلف الله أحد ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٤ .

(٣) أسرار البلاغة ص ١٤ - ١٥ .

فإن عبد القاهر من أبرز علامات القرن الخامس مؤسساً لعلم المعاني ، وعلم البيان ، مُعَبِّداً مسلّكهما لمن جاء بعده .

- الزمخشري - المتوفي سنة ٥٣٨ هـ -

يعتبر من أهم من اقتفى أثر عبد القاهر . فهو العالم النحوي اللغوي المفسر الأديب ، له مؤلفات قيمة في كل هذه المناحي ، وأهم كتبه وأشهرها كتاب (الكشف) الذي أكمل فيه بناء ما أسسه بعد القاهر في علم المعاني وعلم البيان ، بأن تناول من آيات القرآن الكريم في تفسيره واتخذها خير شاهد وأعظم مثال في توضيح ما أرساه عبد القاهر من قواعد بلاغية . مما جعل - كتاب الكشف يستحوذ على إعجاب علماء عصره ، ومنهم أهل السنة ، مع أن الزمخشري معتزلي .

وكما كان موقف عبد القاهر من البديع في كتابيه : أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، كان كذلك موقف الزمخشري في الكشف ، إذ إنه لم يتوقف عند شيء من البديع إلا ما كان يراه ذا أثر في بلاغة القرآن الكريم ، فنجدته يطرق على استحياء بعض أنواع البديع ، كالطباق والمشاكلة واللف والنشر والالتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، والتقسيم والاستطراد ، ومراعاة النظر والتناسب والتجريد .

ولكن القرن السادس لا يكاد ينقضي حتى يبرز فيه رجلا من رجال علم البديع هما :

- الوطواط رشيد الدين العمري - المتوفي سنة ٥٧٣ هـ -

وله كتاب (حقائق السحر في حقائق الشعر) والكتاب في البلاغة الفارسية - ترجمه إلى العربية الدكتور إبراهيم الشواربي - جعله صاحبه تطبيقاً جيداً لفنون البديع العربي على نصوص الأدب الفارسي .

- وأسامة بن منقذ - المتوفي سنة ٥٨٤ هـ -

هو الرجل الثاني بعد الوطواط من علماء البديع في القرن السادس

الهجري . وأهله بنو منقذ كانوا أمراء (شيرز) بالقرب من حماه ، وينتهي نسبهم إلى حمير .

وكان ابن منقذ شاعراً أديباً له مصنفات عدة في فنون الأدب ، أهمها (كتاب البديع في نقد الشعر) اجتمع له فيه خمسة وتسعون باباً في البديع : جمع فيها كثيراً مما جاء في كتب سابقه في نقد الشعر وبيان ما استحسنت منه وما استهجن ، وقد بدأت أبوابه بالتجنيس وانتهت بالتهذيب^(١) .

أما القرن السابع فكان أغنى من سابقه علماء بلاغة ، سبعة منهم حظي البديع على أيديهم باهتمام خاص ، وهم فخر الدين الرازي ، والسكاكي ، وضياء الدين بن الأثير ، والتيفاشي المغربي ، وابن أبي الإصبع ، وعلي بن سليمان الإربلي ، وبدر الدين بن مالك .

فأما فخر الدين الرازي - المتوفي سنة ٦٠٦ هـ -

فقد تنوعت ثقافته ، وبالتالي تنوعت كتاباته ما بين التفسير ، والفقه ، وعلم الكلام ، والطب ، والكيمياء ، مما صبغ تفكيره بالدقة والإحكام والمنطق القوي .

وأشهر كتب الرازي (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) أجمل فيه ما بسطه عبد القاهر في كتابه : أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، فقام بعملية تنظيم وتبويب وترتيب واختصار وضبط لكل ما أورده عبد القاهر في الكتابين .

ولم يغفل الرازي (البديع) في كتابه ، فتناول منه أنواعاً عدة ، نقلها عن كتاب الوطواط (حقائق السحر في حقائق الشعر) . من هذه الأنواع : تجنيس الخط ، والمصحف ، والتجنيس ، والاشتقاق ، ورد العجز على الصدر ، والمقلوب . . . وغير ذلك من ألوان البديع التي لخصها ونشرها في ثلث كتابه بطريقة نتج عنها نوع من الخلط بين علم البديع وعلم المعاني والبيان .

(١) أنظر في ذلك تاريخ الأدب لجورجي زيدان ج ٣ ص ٦١ .

ثم يأتي السكاكي - المتوفي حوالي ٦٢٦ هـ -

وقد أتقن علوم المنطق والفلسفة ، والفقه وأصوله ، واللغة والبلاغة ، وينعكس أثر هذه الثقافات والمعارف على تأليف وتبويب أشهر كتبه (مفتاح العلوم) فيفرد القسم الأول منه لعلم الصرف وما يدور حوله من أنواع الاشتقاق ، ويخصص القسم الثاني لعلم النحو ، أما القسم الثالث من الكتاب فيجعله لعلوم البلاغة : المعاني والبيان وما يلحق بهما من مباحث البلاغة والفصاحة ، والمحسنات البديعية بقسميها اللفظي والمعنوي .

ولعل تقسيم المحسنات البديعية إلى معنوية ولفظية تقسيماً صحيحاً كان على يدي السكاكي إذ يقول^(١) بعد تعريف البلاغة والفصاحة :

(وإذ نقرر أن البلاغة بمرجعيتها ، وأن الفصاحة بنوعيتها مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين ، فها هنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام ، فلا علينا أن نشير إلى الأعراف منها وهي قسمان : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ) .

ثم سرد من القسم الأول الراجع إلى المعنى عشرين نوعاً ، أتبعها بخمسة أنواع من القسم الثاني الراجع إلى اللفظ .

وكان من حاول هذا التقسيم قبل السكاكي يخلط بين اللفظي والمعنوي في غالب الأحيان .

كما يحسب للسكاكي أنه أول من فرق بين مباحث علمي المعاني والبيان ، وأطلق على كل منهما مصطلحه (علم المعاني) و(علم البيان) ، وهو كذلك أول من أشار إلى أن منزلة علم البيان من علم المعاني منزلة المركب من المفرد ، وبذلك ينبغي أن يأتي علم البيان في مرحلة تالية بعد علم المعاني^(٢) .

ولم يشر السكاكي إلى البديع على أنه علم كالمعاني والبيان ، إذ جعل

(١) المفتاح ص ١٧٥ .

(٢) المفتاح ص ٧٠ .

المحسنات المعنوية والمحسنات اللفظية في تعريفه للبلاغة متضافرة مع مسائل عِلْمِي المعاني والبيان في الوصول بالكلام إلى أعلى الدرجات من التحسين والتزيين .

ولم يأت السكاكي بجديد في أنواع البديع ، بل هو يستقصي كل ما اهتدى إليه سابقوه في علم البديع ، ويقتصر على ستة وعشرين منها استمدها بأمثلتها من فخر الدين الرازي .

ولقد أفاد السكاكي من كتب السابقين جميعاً ، وعلى وجه الخصوص كتب عبد القاهر الجرجاني ، وبالتالي كان كتابه (مفتاح العلوم) شغل من أتوا بعده جميعاً ما بين ملخص وشارح وناظم ومقرر . فحظى المفتاح من اهتمام الباحثين بما لم يحظ به كتاب قبله ولا بعده . وكان للقسم الثالث من المفتاح - وهو القسم الخاص بعلوم البلاغة - الحظ الأوفر من الشهرة والذيع بين جمهور الناس حتى يومنا ، رغم تمام سابقيه في بابهما ، وذلك لأن السكاكي في القسم الثالث من كتابه نهج بالبلاغة نهجاً لم يتبعه سابقوه ، إذ فتح على علوم البلاغة باب العلوم العقلية على مصراعيه في المنطق والفلسفة ، وبلغ في ذلك شأواً عظيماً فاق فيه قدامة إلى حد بعيد ، مما جعل بعض الباحثين يرى أن السكاكي كان زعيم حلبة ، وممهداً لطريقة أوردت البديع مع زميليه : المعاني والبيان ، موارد الإسفاف والانحطاط حين بدأ البديع يفقد صبغته الأدبية التي أبرزته في معرض الاشراف والاعجاب ليتعثر في قبور ضيقة في هالة المنطق والفلسفة ، فتشابهت كتب العلماء بعده فيما توارثوه من أمثلة تقليدية ، حتى أصبح من وقف على كتاب منها استغنى به عما سواه .

ابن الأثير - المتوفي سنة ٦٣٧ هـ -

هو ضياء الدين بن الأثير ، ولد سنة ٥٨٨ هـ في جزيرة تدعى (جزيرة ابن عمر) على مسيرة ثلاثة أيام من الموصل^(١) . وهو العالم اللغوي البلاغي الأديب الوزير . وضياء الدين ثالث أخوين ، وأصغر الثلاثة سناً ، وكل واحد من الثلاثة عالم في فرع ، فالأكبر هو مجد الدين بن الأثير - المتوفي سنة ٦٠٦ هـ من

(١) معجم البلدان ج ٣ ص ١٠٢ .

رجاللات الحديث ، وله كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) . والثاني هو عز الدين بن الأثير - المتوفي سنة ٦٣٠ هـ - وهو العالم المؤرخ صاحب كتاب (الكامل في التاريخ) وكتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) .

أما ضياء الدين بن الأثير فإن الذي يهمننا من مؤلفاته - على تنوعها وكثرتها - هو كتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) . وفيه يتخفف البديع إلى حد ما من قيود الفلسفة والمنطق ، ليعود إلى ثوبه الأدبي القديم ، وإن كان ابن الأثير لم يستطع الخلاص من سمات عصره الأسلوبية كالميل إلى الضبط والحصر والجدولة المنطقية والفلسفية ، ولم يسلم كتاب (المثل السائر) أيضاً من سمة عصره في الكتابة ، وهي الصناعة اللفظية التي عابها ابن الأثير على كتاب عصره .

وبالرغم من كل ذلك فإن كتاب (المثل السائر) سجل واف لكل ما يتصل بفن الكتابة والشعر ، حاز الإعجاب ، وأشاد به كثير من علماء البيان ، فأنزلوه في النظم والنثر وصناعة الكتابة منزلة الفقه لاستنباط أدلة الأحكام .

وقد أخذ بعض العلماء علي ابن الأثير في (المثل السائر) أنه شديد الزهو بنفسه ، كثير الإشادة بسبقه ، مُدِلُّ بما وصل إليه دون غيره ، فأقواله متبوعة غير تابعة . . إلى آخر ما ملأ به كتابه من عبارات الزهو والإعجاب بنفسه ، وما عده بعض العلماء غروراً لا ينبغي ، وتجريحاً لغيره غير جائز ، مما جعل ابن أبي الحديد صاحب (نهج البلاغة - المتوفي سنة ٦٥٥ هـ - يتصدى له بكتاب صغير سماه (الفلك الدائر على المثل السائر) يرد فيه على ضياء الدين معنفاً مصححاً لما غلط فيه من آراء ، ناقضاً نقده وتجريحه للزمخشري والغزالي وأبي على الفارسي وابن سينا والفارابي وغيرهم . ثم جاء صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي - المتوفي سنة ٦٧٤ هـ - مناصراً ابن أبي الحديد في ثورته على ضياء الدين فألف كتاباً سماه (نصرة الثائر على المثل السائر) .

ولقد انتفع ابن الأثير بكتب من سبقوه كابن المعترز وقدامة وأبي هلال وابن جنى والبغداديين ابن أفلح وابن حمدون ، واقتبس كثيراً من عبد القاهر وأدعاه لنفسه . ولكن ذلك كما قلنا لم يقلل من قيمة كتابه (المثل السائر) .

موقف (المثل السائر) من البديع : -

يجاري ابن الأثير بعض سلفه كعبد القاهر والزمخشري والسكاكي في عدم اعتبار البديع علماً قائماً بذاته ، ويهتم بالبيان متضمناً المعاني والبديع ، وهو بذلك يسير على مدرسة الجاحظ في اعتبار كلمة (بيان) مرادفة لكلمة (بلاغة) . ولم يتعرض لكلمة (البديع) في كتابه إلا في موطن واحد حيث أطلق على (المطابقة) اسم (البديع) .

ويتكون (المثل السائر) من مقدمة ومقالتين ، في المقدمة تسجيل لأصول علم البيان . أما المقالتان فتشملان فروع علم البيان . المقالة الأولى خاصة بالصناعة اللفظية ويتناول فيها ابن الأثير المحسنات البديعية اللفظية ، والمقالة الثانية خاصة بالصناعة المعنوية ويتناول فيها المحسنات البديعية المعنوية .

وفي القسم الثاني من المقالة الأولى يعالج البديع اللفظي فيختار منه ثمانية أنواع هي : -

- ١ - السجع ويختص عنده بالكلام المنشور .
- ٢ - التصريع ويختص عنده بالكلام المنظوم .
- أما ستة الأنواع الباقية فتختص بالمنثور والمنظوم معاً وهي :
- ٣ - التجنيس .
- ٤ - التصريع .
- ٥ - لزوم ما لا يلزم .
- ٦ - الموازنة .
- ٧ - اختلاف صيغ الكلام .
- ٨ - تكرير الحروف .

أما المقالة الثانية الخاصة بالمحسنات البديعية المعنوية ، فقد تناول فيها الكلام في المعاني بإسهاب وتفصيل ، فأورد منها ثلاثين نوعاً ، نذكر منها الاستعارة ، والتشبيه ، والتجريد ، والالتفات ، والتفسير بعد الإبهام ، والاستدراج ، والإطناب ، والإيجاز ، والتكرير ، والتعريض ، والأحاجي

والألغاز ، والتناسب بين المعاني ويقسمه ثلاثة أقسام : الطباق وصحة التقسيم . وترتيب التفسير الذي أراد به ما يشبه اللف والنشر . كما أنه توسع في معنى المطابقة فجعلها تشمل المقابلة ، والمشاكلة ، والمؤاخاة بين المعاني .

وينهى ابن الأثير كتابه ببحث عن السرقات الشعرية ، مشيراً إلى أنه وضع فيها كتاباً منفرداً .

وقد هاجم ابن الأثير من أولعوا بالمحسنات البديعية التي تخرج في بعض صورها عن موضوع علم البيان ، كالذي أورده الحريري من رسائل في بعض مقاماته ، فمن هذه الرسائل ما بنى على الطرد والرد في قراءة عباراتها ، ومنها ما صيغ بطريقة تقرأ بها من أولها بوجه ، ومن آخرها بوجه آخر ، ومنها ما صيغ على أساس حرف غير منقوط وآخر منقوط ، أو على أساس كلمة مهملة وكلمة معجمة .

فكل ذلك من الحيل البديعية رفضه ابن الأثير ونبذ من البيان ، وحكم عليه بأنه (ضرب من الهذيان ، والأولى به وبأمثاله أن يلحق بالشعبذة ، والمعالجة ، والمصارعة ، لا بدرجة الفصاحة والبلاغة)^(١) .

- شرف الدين التيفاشي المغربي - المتوفي سنة ٦٥١ هـ -

من بديعي القرن السابع الهجري ، وقد أحصى من ألوان البديع سبعين نوعاً ضمنها كتابه الموسوم بـ (علم البديع) . وقد أشار ابن أبي الإصبع في كتابه (تحرير التحرير) إلى كتاب التيفاشي في علم البديع وأشاد بصاحبه قائلاً^(٢) .

(وهو آخر من ألف منه تأليفاً قبلي فيما بلغني ، وجمع فيه ما لم يجمعه غيره ، لولا مواضع نقلها ولم ينعم النظر فيها ، وبعض أبواب تداخلت عليه كغيره ، ولو أنعم النظر في ذلك لم يفته ما استدركته عليه ، فإن الرجل أمثل من لقينته من أهل هذه الصناعة في وقتي هذا) .

(١) المثل السائر ص ٣٠٠ .

(٢) تحرير التحرير ص ٤ .

- ابن أبي الإصبع - المتوفي سنة ٦٥٤ هـ -

وهو الأديب الشاعر المصري الشهير أبو محمد عبد العظيم بن عبد الواحد ابن ظافر ابن عبد الله الذي عرف بابن أبي الإصبع .

له كتاب (الأمثال) صدره بأمثال القرآن الكريم ، ثم جمع فيه ما وقف عليه من أمثال الشعراء ومصنفات الدواوين الشعرية .

وله كتاب (بديع القرآن) أو (بدائع القرآن) على حد ما ذكره صاحب (معاهد التنصيص) وأما كتابه الشهير (البديع في صناعة الشعر) أو (تحرير التحبير) فهو كله في البديع ، وبهذا الكتاب انطلق علم البديع من عقاب القرن السابع ليزدهر من جديد ، ويتقدم خطوات واسعة ، إذ عرض فيه ابن أبي الإصبع مائة وعشرين نوعاً من أنواع البديع ، منها ثلاثون سَلِمَتْ له ، والباقي من كتب السابقين ، يقول حاجي خليفة^(١) : (. . . ثم تصدى لها - أي للمحسنات البديعية - زكي الدين عبد العظيم بن أبي الإصبع المتوفي سنة ٦٥٤ هـ فأوصلها إلى التسعين ، وأضاف إليها من مستخرجاته ثلاثين ، سَلِمَ له منها عشرون ، وسماه (التحرير) ، وهذا أصح كتاب صنف فيه ، لأنه لم يتكل على النقل دون النقد) .

وبهذا يصرح ابن أبي الإصبع نفسه في كتابه فيقول^(٢) :

(وقد عنَّ لي استنباط أبواب تزيد بها الفوائد ، ويكثر بها الإمتاع . . . ففتح لي من ذلك بثلاثين باباً سليمة من التداخل والتوارد^(٣) ، ولم أسبق في غلبة ظني إلى شيء منها) .

ويخبرنا ابن أبي الإصبع أن مراجعه في تأليف كتابه بلغت (أربعة وثلاثين كتاباً ، منها ما هو منفرد به - أي البديع - وما هذا العلم أو بعضه داخل في ضمنه)^(٤) .

(١) كشف الظنون ج ١ ص ١٩٠ .

(٢) تحرير التحبير ص ٨ .

(٣) وهذا القول مردود عليه فيما يلي .

(٤) تحرير التحبير ص ٤ .

ويحترز ابن أبي الإصبع مما وقع فيه ابن الأثير من غرور وزهو وتجريح للعلماء ، فيقول^(١) : (. . . وما أبرئ نفسي ، ولا أدعي سلامة وضعي دون أبناء جنسي) .

أما منهج ابن أبي الإصبع في تأليف كتابه فهو كما يقول^(٢) .

(توخيت تحرير ما جمعته من هذه الكتب جهدي ، ودققت النظر حسب طاقتي ، فنقحت ما قدرت على تنقيحه ، وصححت ما قويت على تصحيحه ، وغيرت ما وجب تغييره ، ووضعت كل شاهد في موضعه ، وربما أثبت اسم الباب دون مسماه إذا رأيت اسمه لا يدل على معناه ، إلى أن جمعت ما في كتب الناس من الأبواب على ما قدمت مني) .

ومما أخذ على ابن أبي الإصبع أنه أدخل بعض أنواع علم المعاني في علم البديع ، ومنها صور الإطناب كال تكرار والتفصيل والتذييل والاستقصاء والإيضاح والبسط والإيجاز .

كما أن بعض المحسنات البديعية الثلاثين التي قال إنها من اختراعه ، غير مسبوق إليها ، سليمة من التداخل والتوارد ، نجد ، أكثر من نوع منها إما مسبوق إليه ، وإما فيه تداخل مع غيره من الأنواع المعروفة قبله ، فمثلاً (الإلغاز والتعمية) سبقه إليه ابن الأثير ، و (الإيهام) سبقه إليه السكاكي وكذلك (التصرف) وهو من علم البيان وسبقه السكاكي إليه وحدده بأنه علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ، و (السلب والإيجاب) سبقه إليه أبو هلال العسكري ، و (حسن الخاتمة) سبقه إليه القاضي الجرجاني في (الوساطة) وابن رشيقي في (العمدة) وسماه التيفاشي (حسن المقطع) ، وأما (الحيدة والانتقال) فقد سبقه إليه قدامى المفسرين في تفسير الآية الكريمة (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه . . . الآية) ، و (الإيضاح) غنده هو ما عرف

(١) السابق ص ٥ .

(٢) السابق ص ٥ .

في البديع باسم (التفسير) ، و (التشكيك) هو (تجاهل العارف) عند ابن المعتز .

ويعتبر ابن أبي الإصبع ثالث ثلاثة يمثلون فترة انتقال علوم البلاغة من مرحلة إشراق الصور الأدبية في درس البديع إلى مرحلة القيود الفلسفية والجداول المنطقية ، واللف والدوران حول ما تم تأليفه شرحاً واختصاراً وتلخيصاً وتقليداً وتقريراً ونظماً ، وكان ليس بالإمكان أبدع مما كان ، وظلت الحال على ما هي عليه منذ أواخر القرن السابع وأوائل الثامن الهجري حتى العصر الحديث .

وفي أواخر القرن السابع الهجري نجد معاصراً لابن أبي الإصبع وهو : - علي بن عثمان الإربلي - المتوفي سنة ٦٧٠ هـ - وبه تبدأ مرحلة جديدة في دراسة البديع ، هي مرحلة النظم ، نظم البديع في قصائد ومدائح نبوية عرفت فيما بعد باسم (البديعيات) والقصيدة التي نظمها الإربلي تتكون من ستة وثلاثين بيتاً ، يشتمل كل بيت منها على نوع من أنواع البديع ، ووضع إزاء كل بيت اسم المحسن البديعي الذي يحتويه البيت مثل :

بعض هذا الدلال والإدلال . . حال بالهجر والتجنب حالي (الجناس اللفظي) .

طلبُ دونه منالُ الثُريا . . وهو دونه زوالُ الجبال (الغلو) .
وهكذا تسير المنظومة البديعية إلى آخرها .

وأما ابن مالك - المتوفي سنة ٦٨٦ هـ -

فهو بدر الدين محمد بن جلال الدين ابن مالك الطائي ، وأبوه جمال الدين بن مالك العالم النحوي ناظم الألفية المشهورة في النحو ، وبدر الدين عالم نحوي وبلاغي ، وهو من مدرسة التلخيص ، إذ لخص كتاب السكاكي (مفتاح العلوم) وسماه (المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع) ، وبهذا العنوان ومحتواه يكون السبق لبدر الدين بن مالك في جعل المحسنات البديعية علماً مستقلاً يقف إلى جانب علم المعاني وعلم البيان ، وبذلك أتاح للدرس البلاغي أن يتضمن علوماً ثلاثة هي : المعاني والبيان والبديع ، وعلى نهجه سار لاحقوه في هذا الميدان ، يضاف إلى ذلك أنه جرد كتابه مما علق

بكتاب السكاكي من قيود منطقية وفلسفية وكلامية ، كما أنه أتاح لدراسة البديع في كتابه من الكثرة ما لم يتح لها في مفتاح السكاكي ، فقد ذكر ابن مالك من البديع في كتابه أربعة وخمسين نوعاً ، ولم يكن للسكاكي في المفتاح سوى ستة وعشرين نوعاً فقط .

كما أن بدر الدين بن مالك تابع السكاكي في إرجاع المحسنات البديعية إلى الفصاحة اللفظية والمعنوية ، غير أنه انفرد عن السكاكي وغيره بأن جعل المعنوية قسمين : أحدهما يؤول إلى الإفهام والتبيين ، مثل (المذهب الكلامي) والتميم ، والتقسيم ، والاحتراس ، والتذليل ، والاعتراض ، والتجريد والمبالغة ، والقسم الآخر يؤول إلى التزيين ، والتحسين ، مثل اللف والنشر ، والجمع مع التقسيم ، والجمع مع التفريق .

ثم يتوالى بعد ذلك الملخصون والشرح والناظمون ، وهي الفترة التي يطلق عليها فترة الجمود أو التقليد .

ولم يكتب النجاح والتوفيق لأحد ممن اتجهوا إلى تلخيص أو نظم الجزء الثالث من (مفتاح العلوم) أكثر مما كتب للبلاغي المعروف :

الخطيب القزويني - المتوفي سنة ٧٣٩ هـ -

أطلق القزويني على كتابه اسم (تلخيص المفتاح) وفيه يتضح أن القزويني لم يكن متأثراً بالسكاكي وحسب ، بل بالسابقين معظمهم ، كالخفاجي ، وعبد القاهر ، وابن الأثير ، وابن رشيق ، وأبي هلال ، وابن أبي الإصبع وغيرهم .

وقد أجاد القزويني في كتابه ترتيب المسائل البلاغية وتبويبها بدقة وفهم ، ولم يكن ينقصه غير الانسلاخ من الحدود المنطقية والفلسفية ، والإكثار من الشواهد الأدبية ، والنصوص المفيدة في تربية الذوق والوجدان ، وتكوين القدرات والملكات .

وقد شعر الخطيب القزويني بما يشيع في كتابه من غموض وإبهام ، فعمد

إلى تأليف كتاب آخر يجلّى فيه ما غمض ، ويوضح ما أبهم في التلخيص ، فأطلق على هذا الكتاب اسم (الإيضاح في علوم البلاغة) استدرك فيه ما فاتته في التلخيص ، فأكثر من الشواهد والأمثلة ، وزاد فيه نوعاً من البديع هو (الاستطراد) ، فكان للكتاب وسابقه ما كان من شهرة وذيع ورواج وإعجاب حتى يومنا هذا .

- أما يحيى بن حمزة العلوي - المتوفي سنة ٧٤٩ هـ -

النحوي البلاغي الفقيه ، فله (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز) .

والكتاب في علوم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، وقد استوحى العلوي ما كتبه في البديع من كتاب بدر الدين بن مالك ، كما تأثر بابن الأثير والزملكاني والفخر الرازي ، واطلع على كتبهم .

- والتنوخي هو محمد بن عمرو التنوخي ، توفي في السنة نفسها التي توفي فيها بن حمزة العلوي سنة ٧٤٩ هـ .

وكتاب التنوخي (الأقصى القريب في علم البيان) يتبع فيه نهج ابن الأثير في اعتبار البلاغة وحدة عضوية غير منقسمة إلى معان وبيان وبديع ، وإن كان يخالف ابن الأثير في الأسلوب والمعالجة ، إذ يعتمد التنوخي على حدود المنطق والفلسفة والنحو .

- ابن قَيم الجوزية - المتوفي سنة ٧٥١ هـ -

هو شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قَيم الجوزية .

وكان عالماً فقيهاً ، مفسراً ، لغوياً ، نحوياً ، محدثاً ، أصولياً ، كان يلزم ابن تيمية ، لم يفازقه حتى في معتقله بقلعة دمشق .

من مؤلفات ابن القيم (كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم

(البيان) . وفي مقدمة الكتاب بحث بعض فنون البيان من استعارة وتمثيل وحقيقة ومجاز . وفي القسم الأول منه يحصى من محسنات البديع المعنوية ثمانين نوعاً . وفي القسم الثاني يبحث من المحسنات البديعية اللفظية أربعة وعشرين نوعاً ، وكلها ترديد لما قاله السلف ، وتجميع يعوزه الترتيب والدقة والتبويب .

- صفى الدين الجلى - المتوفى سنة ٧٥٠ هـ -

شاعر مشهور ، درس المعاني والبيان ، وألف فيهما ، كان يعمل بالتجارة ، ويزور أقطاراً كثيرة فيمدح إبان رحلته ملوكاً وأعياناً وأمراء . وللجلى ثاني بديعية بعد الاربلي ، وبديعية الجلى قوامها مائة وخمسون بيتاً^(١) في مدح الرسول ﷺ ، وهي من بحر البسيط ، نسجها على منوال بردة البوصيري وزناً وقافية ومضموناً ، وسماها (الكافية البديعية في المدائح النبوية) . ومطلعها :

إن جئت سَلْعاً فسَلِّ عن جيرة العَلَمِ واقِرِّ السلامَ على عُربٍ بذي سَلَمٍ
وتشتمل بديعية الجلى على مائة وخمسة وأربعين نوعاً من المحسنات البديعية ، والخمسة الأبيات الأولى منها في الجناس أحصت منه اثني عشر نوعاً ، ومطلع القصيدة يحتوي على حسن الابتداء أو براعة الاستهلال وفيه أيضاً من الجناس (سَلَامٌ وَسَلَمٌ) و(عَلَمٌ وَسَلَمٌ) .

وتختلف بديعية صفى الدين عن سابقتها بديعية الإربلي في أن بديعية الجلى لا يلتزم فيها بذكر النوع البديعي إزاء كل بيت تجنباً للتعقيد ، واكتفاءً بالمثال ، وقد شرح عبد الغني النابلسي بديعية الجلى ، وسمى الشرح (الجواهر السني في شرح بديعية الجلى) .

- وابن جابر الأندلسي - المتوفى سنة ٧٨٠ هـ -

له بديعية ميمية القافية ، بحرهما من البسيط ، واسمها (الحلة السيرا في مدح خير الورى) . انتهج فيها نهج بديعية الجلى ، وقام صاحبه أبو جعفر

(١) عدتها عند الحملاوي مائة وواحد وخمسون بيتاً ، (زهر الربيع) ص ١٥٧ .

بشرحها . تتألف بديعية ابن جابر من مائة وسبعة وعشرين بيتاً ، يقول مطلع البديعية .

بطيبة أنزل ويمم سيّد الأمم . وأنثر له المَدَح وأنثر أطيّب الكلام .

وشارح البديعية أبو جعفر ، يشير في مقدمة شرحه إلى أن ابن جابر الأندلسي التزم في بديعيته بمنهج الخطيب القزويني في (التلخيص) و(الإيضاح) ، وهو يسرد في القصيدة المحسنات البديعية التي قصر القصيدة عليها دون خلطها بغيرها من ألوان البديع ، ولم يذكر ابن جابر اسم المحسن البديعي في كل بيت ، وهو في ذلك يجارى بديعية صفى الدين الحلّى ، غير أنه اقتصر على ما يقرب من ستين فناً من فنون البديع مقدماً المحسنات اللفظية على المعنوية .

- وعز الدين الموصلي - المتوفي سنة ٧٨٩ هـ -

ضمن رهط الناظمين ، اقتدى بمن قبله وخصوصاً صفى الدين الحلّى .

تبدأ بديعية الموصلي بقوله :

براعة تستهلّ الدمع في العلم . عبارة عن نداء المُفَرِّد العلم

وتقع البديعية في مائة وخمسة وأربعين بيتاً ، يعارض بها بديعية الحلّى ، غير أنه يذكر مسمى النوع البديعي في كل بيت بالتورية أو الاستخدام .

وللموصلي بديعية أخرى لامية ، التزم فيها بوزن قصيدة كعب بن زهير (بانث سعاد) .

وينقضي القرن الثامن ، ويهل التاسع الهجري وما يليه ، والبديع ما يزال في معظم دراساته ينهج طريقة النظم ، وممن التزم هذا النهج النظمي في دراسة البديع آنذاك .

- ابن حجة الحموي - المتوفي سنة ٨٣٧ هـ -

وله كثير من المصنفات نظماً ونثراً ، أما بديعيته المشهورة فقوامها مائة واثنان وأربعون بيتاً ،

يقول مطلعها :

لي في ابتداء مَدْحِكُمْ يا عُرْبَ ذِي سَلَمٍ بَرَاةٌ تَسْتَهْلُ الدَّمْعَ فِي الْعَلَمِ
والبديعية من المدائح النبوية ، يُضْمَنُ فيها ألفاظ كل بيت ما يشير إلى النوع
البديعي ، مقتدياً في ذلك بالموصلي ، غير أنه خلط فيها بين اللفظي والمعنوي
دون ما فصل أو تحديد ، ولعل صعوبة تطويع أسماء بعض الأنواع البديعية
للنظم ، جعله يخالف من سبقوه في مسميات بعض الأنواع في بديعيته .

وربما شعر ابن حجة بذلك فقام بشرح بديعيته شرحاً مسهباً في كتاب أطلق
عليه : (خزانة الأدب) فكان مضمون الكتاب محققاً لعنوانه ، لما احتواه الكتاب
من علوم ومعارف متنوعة ، تؤيدها الشواهد والأمثلة ، مما جعل هذا الشرح خزانة
أدب وبلاغة ونقد وتاريخ وتراجم ، مع المنظوم والمنثور من كلام الأيوبيين
والمملوكيين .

- والسيوطي - المتوفي سنة ٩١١ هـ -

هو جلال الدين بن عبد الرحمن بن الكمال الخضيرى .

له بديعية سماها (نظم البديع في مدح خير شفيح) أراد بها محاكاة بديعية
الحموي ، فوضع لها شرحاً ، غير أن البديعية وشرحها ، لم يكتب لهما ما كتب
لبديعية الحموي وشرحها .

- أما عائشة الباعونية - المتوفاة سنة ٩٢٢ هـ -

فهي شاعرة أطراها كثيرون من أهل العلم ، ويورد الحموي في خزانته^(١) ما
وصفها به الشيخ عبد الغني النابلسي بقوله :

(إنها فاضلة ، ومن تأليفها هذه البديعية المسماة بالفتح المبين في مدح الأمين ،
نظمتها على منوال تقي الدين بن حجة ، مع عدم تسمية النوع - البديعي - تمسكاً
بطلاقة الألفاظ ، وانسجام الكلمات ، وشرحها بهذا الشرح المختصر الذي
أسفرت فيه عن لسان البيان بقدر الطاقة والإمكان ، ولها ديوان شعر بديع في

(١) خزانة الأدب ص ٤ .

المدائح النبوية كله لطائف ، ومن تأليفها ، مولد جليل للنبي ﷺ ، اشتمل على فرائد النظم والشر .

وبديعية عائشة الباعونية التي عَرَّفْنَا بها الشيخُ النابلسي ، مطلعها :
في حُسْنِ مَطْلَعِ أَقْمَارِي بِذِي سَلَمٍ أَصْبَحْتُ فِي زُمْرَةِ الْعُشَّاقِ كَالْعَلَمِ .

- وصدر الدين الحسيني - المتوفي سنة ١١١٧ هـ -

يبدأ ببديعته بقوله :

حُسْنُ ابْتِدَائِي بِذِكْرَى جِوَرَةِ الْحَرَمِ . له براعةٌ شَوْقِي تَسْتَحِلُّ دَمِي
وقد ضَمَّنَ أبياتها أسماء الأنواع البديعية ، ووضع لها أيضاً شرحاً سماه
(أنوار الربيع في أنواع البديع) مجارياً في ذلك ابن حجة الحموي .

- والشيخ عبد الغني النابلسي - المتوفي سنة ١١٤٣ هـ -

من ذوي الشهرة في ميدان النظم البديعي ، وله بديعتان ، كل منهما يبلغ
مائة وخمسين بيتاً ، وبهما مائة وخمسة وخمسون نوعاً من البديع .

الأولى لم يلتزم فيها بذكر المُحَسَّنِ البديعي في الأبيات ، صَنِيعَ الْحَلِيِّ
والباعونية ، وأطلق عليها (نسمات الأسحار في مدح النبي المختار) ومطلعها :
يَا مَنْزِلَ الرُّكْبِ بَيْنَ الْبَابِ وَالْعَلَمِ . مِنْ سَفْحِ كَاطِمَةٍ حُيِّتَ بِالْدِّيمِ .

ووضع لها شرحاً سماه (نفحات الأزهار) .

أما البديعية الثانية ، فقد ضَمَّنَ أبياتها اسم المحسن البديعي ، وسجل كل
بيت فيها مقابل مثيله في هامش البديعية الأولى ، ومطلع هذه البديعية الثانية
يقول :

يَا حُسْنِ مَطْلَعِ مَنْ أَهْوَى بِذِي سَلَمٍ . بَرَاةُ الشَّوْقِ فِي اسْتِهْلَالِهَا أَلَمِي .

ولهذه البديعية شرح أودعه القلعي مع البديعيات العشر .

- أما البيروتي - المتوفي سنة ١٢٢٦ هـ -

فهو السيد أحمد البربر البيروتي دمياطي المولد ، بيروتي النشأة ، ومات بدمشق .

كان البيروتي شاعراً أديباً ، وله بديعية على بيتين من قصيدة الموصلي ، سماها (الشرح الجليّ على بيتيّ الموصليّ) والبيتان هما :

إِنْ مَرَّ وَالْمَرْأَةُ يَوْمًا فِي يَدِي مِنْ خَلْفِهِ ذُو اللَّطْفِ أُسْمَى مَنْ سَمَا
وَارَتْ تَمَائِيلَ الزَّجَاجِ وَلَمْ تَزَلْ تَقْفُوهُ عَدْوًا حَيْثُ سَارَ وَيَمَّمَا

وصاحب البيتين هو عبد الرحمن الموصلي ، من شعراء القرن الثامن عشر الميلادي . وقد قام البيروتي بوضع كتاب كامل في شرح هذين البيتين ، ضمّنه الكثير من فنون الأدب .

وللبيروتي أيضاً مقامات كمقامات الحريري تسمى (مقامات البربر) وله أيضاً بديعية يمدح فيها الرسول الكريم ضمنها كثيراً من ألوان البديع ، وعليها شرح .

- والساعاتي - المتوفي سنة ١٢٤١ هـ -

هو محمود صفوت الساعاتي ، الشاعر المصري المُجيد ، وفي ديوانه بديعية في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام . تبلغ مائة واثنين وأربعين بيتاً . وذكر في أبياتها أسماء المحسنات البديعية ، وهو يعارض ببديعيته ابن حجة الحموي ، ومطلع بديعية الساعاتي يقول :

سَفْحُ الدُّمُوعِ لَذِكْرِ السُّفْحِ وَالْعَلَمِ أَبْدَى الْبَرَاةِ فِي اسْتِهْلَالِهِ بِدِمِ

الفصل الثاني

معالم البديع في أدب القدماء والمحدثين

١ - القدماء

٢ - المحدثون

أولاً : معالم البديع في أدب القدماء^(١) :

مما سبق عرفنا أن ابن المعتز هو مؤسس علم البديع ، وواضع لبناته الأولى التي أكمل بناءها من جاء بعده حتى استوى علماً مستقلاً ، وضلعاً قائماً بذاته من أضلاع المثلث البلاغي : المعاني والبيان والبديع . وعرفنا كذلك أن البديع هو وجوه تحسين الكلام وتزيينه وتنسيقه وزخرفته ، وأن من هذه المحسنات ما هو متعلق باللفظ ، ومنها ما هو متعلق بالمعنى مع اعتبار اللفظ .

وصناعة الكلام بعامة ، والشعر على وجه الخصوص ، صناعة لا تقوم إلا على أساس من الفن دقيق ، يعطيه صفة الشعر ، ويكسبه القدرة على استمالة القلوب ، واجتذاب الأسماع ، وما مقومات ذلك كله غير محسنات القول سواء أكان التحسين واقعاً في اللفظ أم كان مناطاً به المعنى .

وليس اختراع ابن المعتز للبديع ، ووضعه أسسه . يعني أن الكلام قبل ابن المعتز كان خلواً من فنون تحسينه وتزيينه ، بل كان كلام العرب شعره ونثره منذ قديم مشتملاً على وجوه حسنة ومقومات جماله التي أحسّ بها أهلها ونوها بالكثير منها حتى جاء ابن المعتز فجمع منها ما استطاع ، وأعطاه اسم (البديع) .

ودليل وفرة البديع في كلام العرب أن ابن المعتز (٢٩٦ هـ) لم يأت على أنواعه كلها ، بل ظل باب اكتشاف المحسنات وتجميعها وتبويبها مفتوحاً بعده حتى

(١) من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجري .

نهاية القرن السابع الهجري ، وحلول فترة الجمود والتوقف ، وطواف الباحثين بعد ذلك حول ما تم اكتشافه وجمعه ، شارحين ، ملخصين ناظمين مقلدين .

وقد نبه علماء العربية ، ومكتشفو البديع أنفسهم إلى وجود الصناعة الفنية والمحسنات في كلام العرب منذ الجاهلية ، فابن المعتز يقول^(١) : (قد قدمنا في كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة ، وأحاديث الرسول ﷺ ، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، ليعلم أن بشارا وسَلَمًا وأبا نواس ومن تقيهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن) . ثم يقول في الموضع نفسه : (وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع) .

وإن كان هناك فرق في هذا الصدد بين القدماء والمحدثين ، فهو أن البديع وتحسين الكلام عند القدماء جاء عفو الخاطر ، من فيض الفطرة السليمة ، والذوق المطبوع ، دون أن يعرف القدماء للمحسنات أسماء ولا مصطلحات ، فجاءوا بها في كلامهم دون إعنات أو تكلف يؤدي إلى طغيان اللفظ على المعنى .

وإذا وسمنا أحدهم أو بعضهم بالتكلف ، فإنه ليس تكلف المبالغة أو الاحتفال باللفظ على حساب المعنى ، بل هو التكلف الذي يعنيه ابن قتيبة في قوله^(٢) : (ومن الشعراء المتكلف والمطبوع ، فالتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف ، ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر) . وليست الصنعة عند القدماء كصنعة المولدين ، بل هي على حد قول ابن رشيق^(٣) : (ومن الشعر المطبوع والمصنوع ، فالمطبوع هو الأصل وعليه المدار ، والمصنوع - وإن وقع عليه هذا الاسم - فليس متكلفًا تكلف أشعار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تَعَمُّل ، لكن بطباع القوم عفاوا فاستحسنوه ، ومالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ، حتى صنع زهير الحوليات على

(١) كتاب البديع ص ٣ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٧ .

(٣) العمدة ج ١ ص ١٠٨ .

وجه التنقيح والتثقيف ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك) .

وقد بين الجاحظ لنا أن حوليات العرب ، لم يكن تحكيكهم لها ، وطول تقليب نظرهم فيها ، إلا حرصاً على الجودة وطلباً للكمال فيقول^(١) :

(ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا ، وزمناً طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويقلب فيها رأيه اتهاماً لعقله ، وتتبعها على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، اشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله من نعمته) .

وكان الأصمعي يسمى أصحاب الحوليات مثل (زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر)^(٢) .

فهؤلاء المنقحون من عبيد الشعر وإن وصفوا بالتكلف ، فإن تكلفهم كما يقول ابن رشيق^(٣) : (ليس من جنس التكلف الذي اتصف به المحدثون ، بل كانوا حريصين على ألا تخرج أشعارهم للناس إلا بعد تهذيبها ، ولم يكن هذا التهذيب إلا طرح ما لا يحتاج إليه المعنى ، إبعاد معنى لا روعة له ولا قوة ، أو تغيير عبارة بأختها ، أو لفظة بغيرها أتم منها وأكمل) .

ومهما حاولنا إنصاف القدماء فلن نأتي بأبلغ مما أوردناه من أحكام علماء العربية الثقات الذين أنصفوا القدماء من المحدثين في استخدام المحسنات في كلامهم ، وأشاروا إلى أن الشاعر القديم وإن حسن شعره بطباق وزينه بجناس ، وجمله بمقابلة ، فإن ذلك لم يكن عن عمد أو تصنع ، بل إن العرب كما قال ابن رشيق^(٤) : (لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، فتترك لفظة

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٧ .

(٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٧ . ومن عبيد الشعر أيضاً طفيل الغنوى والناطقة الذبياني وعدى بن الرقاع وغيرهم .

(٣) العمدة ج ١ ص ١١٢ .

(٤) السابق ج ١ ص ١٠٨ .

للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وإحكام عقد القوافي ، وتلاحم الكلام بعضه ببعض) . بل كانت العرب كما قال القاضي الجرجاني^(١) : (تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله ، وشوارد أبياته ، ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحتفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض ، وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها ، ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد) .

فالقاضي الجرجاني هنا لم ينف وجود المحسنات في شعر الجاهلية ، بل يقصد أنها وردت في شعرهم عفواً على غير تعمد وقصد ، دون احتفال بها ومبالغة فيها ، وهنا يرى الدكتور محمد مصطفى هدارة أن (مسألة العفوية والتعمد هذه مسألة اعتبارية محضة تتدخل فيها عناصر ثقافة الشاعر نفسه ، ودرجة تخيله ، كما تتدخل فيها عناصر الإلهام ووسائله)^(٢) .

وقد قام صاحب الصبغ البديعي بتقصي أنواع البديع التي طرقها القدماء من جاهليين وإسلاميين ، دون أن يكونوا عارفين لأسمائها العلمية الاصطلاحية ، وقد سائر في استقصائه الخطيب القزويني بما أورده من شواهد في كتاب (الإيضاح) بادئاً شواهد في كل نوع بالشعر الجاهلي ثم بالقرآن الكريم والحديث ، ثم الأدب الإسلامي حتى القرن الثاني الهجري .

وقد استطاع أن يحصر اثنين وثلاثين نوعاً بديعياً^(٣) طرقها الأقدمون ، منها ستة وعشرون نوعاً مما عرف بالمحسنات المعنوية ، وستة أنواع مما عرف بالمحسنات اللفظية .

(١) الوساطة ص ٣٧ .

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٦٠١ .

(٣) الصبغ البديعي ص ٢٦ - ٤١ .

ونورد هنا خلاصة لما طرقه القدماء من أنواع البديع بترتيب مصنفها المأخوذ من كتاب (الإيضاح) ، مشفوعة بما ورد منها في القرآن الكريم والحديث الشريف .

أولاً : المحسنات المعنوية : -

١ - الطباق : -

ومنه قول امرئ القيس :

مَكْرٌ مَفَرٌّ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلٍ

فهو يطابق بين الكرّ والفرّ وبين الإقبال والإدبار .

ومنه قول النابغة الجعدي :

فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسِرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنْ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا

فهو يقابل بين يسرّ الصديق ويسوء الأعداء .

ومن الطباق قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

وقول الرسول ﷺ : (انكم لتكثرثون عند الفزع ، وتقلثون عند الطمع) .

٢ - مراعاة النظير : -

ومنه قول امرئ القيس يجمع بين الأمور المتناسبة مما هو ظاهر :

فَدَمَعُهُمَا سَكْبٌ وَسَحٌّ وَدِيمَةٌ وَرَشٌّ وَتَوَكَّافٌ وَتَنْهَمِلَانِ (٢)

ومنه قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحَسَابٍ ﴾ (٣) ومن تشابه الأطراف قوله .

تعالى :

(١) آل عمران ٢٦ .

(٢) سَحٌّ : من سَحَّ سَحٌّ أي سال يسيل ، والدِيمَةُ هي المطر الذي لا يصاحبه برق ورعد . وتَوَكَّافٌ : من الفعل وَكَّفَ أي قَطَرَ . تَنْهَمِلَانِ : تَفِضَانِ .

(٣) الرحمن آية ٥ .

﴿ لا تدركه الأبصارُ وهو يدرك الأبصارَ وهو اللطيفُ الخبير ﴾^(١) .

ومنه قول ذي الرِّمَّة :

لَمِيَاءُ فِي شَفْتَيْهَا حُوءٌ لَعَسَ فِي اللَّثَاتِ فِي أَنْيَابِهَا شَنْبُ^(٢)

٣ - الإِرْصَادُ : -

ومنه قول زهير بن أبي سلمى :

سَمْتُ تَكَالِيفِ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ ثَمَانِينَ حَوْلًا - لَا أَبَا لَكَ - يَسَامُ

ومنه قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾^(٣) .

٤ - المِشَاكَلَةُ : -

ومنها قول عمرو بن كلثوم في معلقته :

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ .

٥ - الِاسْتِطْرَادُ : -

ومنه قول السموءل وهو أول من نطق به كما قال ابن رشيق^(٤) :

وإِنَّا لَقَوْمٌ مَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾^(٥) .

(١) الأنعام ١٠٣ .

(٢) لمياء : سمراء الشفة وهي علامة حسن عندهم . اللعس : ميل إلى السواد في الشفة . الشنب : برودة الريق وعذوبته ، أو حدة الأسنان .

(٣) العنكبوت بعض الآية ٤٠ .

(٤) العمدة ج ٢ ص ٣٧ .

(٥) الأعراف ٢٦ . يوارى : يستر - سؤاتكم : عوراتكم . ريشا : لباسا فاخرا .

ومنه قول جرير :

لما وضعتُ على الفرزدقِ ميسمى وضعا البعيثُ جدعتُ أنفَ الأخطلِ^(١)

٦ - العكس والتبديل :

ومنه قول الأضبط بن قريع وهو جاهلي :

قد يجمع المالَ غيرُ آكلِهِ ويأكلُ المالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهُ
ويقطعُ الثوبَ غيرُ لابسِهِ ويلبسُ الثوبَ غيرُ مَنْ قَطَعَهُ

ومنه قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ .

ومنه قول عبد الله بن الزبير الأسدي :

فَرَدَّ شعورُهُنَّ السودَ بيضاً وَرَدَّ وُجوهَهُنَّ البيضَ سوداً

٧ - الرجوع :

ومنه قول زهير بن أبي سلمى :

قَفَّ بالديارِ التي لَمْ يَعْفُهَا الْقَدَمُ بَلَى وَغَيَّرَهَا الْأَرْوَاحُ وَالسَّيَمُ

ومنه قول حسان بن ثابت :

لَا أُسْرِقُ الشُّعْرَاءَ مَا نَطَقُوا بَلْ لَا يُوَافِقُ شِعْرَهُمْ شِعْرِي

٨ - التورية :

ومنها قول النابغة الذبياني :

خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ تَحْتَ الْعَجَاجِ وَأُخْرَى تَعْلِكُ اللَّجْمَا^(٢)

ومنها قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾^(٣) والمراد استولى .

ومنها قول الشاعر الإسلامي يحيى بن منصور الحنفي :

(١) ضغا : أي استخذى - الميسم : المكواة . جدعت أنفه : قطعته .

(٢) العجاج : التراب . تعلق : تمضغ . اللجم : جمع لجام . والتورية هنا في (صيام) إذ المعنى القريب

وهو الإمساك عن الطعام ، وهو يعني الإمساك عن السير وهو من معاني الكلمة .

(٣) طه - ٥ - .

فَلَمَّا نَأَتْ عَنَا الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا أَنْخُنَا فَحَالَفْنَا السَّيْفَ عَلَى الدَّهْرِ
فَمَا أَسْلَمْتَنَا عِنْدَ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ وَلَا نَحْنُ أَعْضَيْنَا الْجُفُونَ عَلَى وَثَرٍ

قال صاحب الإيضاح : (المراد به إغماد السيوف ، فإن الإغضاء مما يلائم
جفن العين لا جفن السيوف ، وإن كان المراد به إغماد السيوف ، لأن السيوف إذا
أغمد انطبق الجفن عليه ، وإذا جرد انفتح للخلاء الذي بين الدفتين)^(١) .

٩ - الاستخدام :

ومنه قوله تعالى : (لكل أجل كتاب - يمحوا الله ما يشاء ويثبت) قال ابن
حجة الحموي^(٢) : (فإن لفظة كتاب يحتمل أن يراد بها الأجل المحتوم ،
والكتاب المكتوب . وقد توسطت بين لفظتي أجل ويمحوا فاستخدمت (في) أحد
مفهوميهما وهو الأمد بقرينة ذكر الأجل . واستخدمت في المفهوم الآخر وهو الكتاب
المكتوب بقرينة يمحوا) .

وقال معاوية بن مالك - وقيل جرير في بعض المصادر :

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعِينَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا^(٣)

١٠ - اللف والنشر :

ومنه قول امرئ القيس :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ رَحِمْتَهُ جَعَلْ لَكُمْ لَيْلٍ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ
وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾^(٤) .

١١ - الجمع :

ومنه قوله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾^(٥) .

(١) الإيضاح ص ٥٠٠ .

(٢) الحزانة ص ٦٥ .

(٣) أراد بالسما الغيث وبضميرها في كلمة (رعيناه) الثبت .

(٤) القصص - بعض الآية ٧٣ .

(٥) الكهف - بعض الآية ٤٦ .

وقول النبي ﷺ : (مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِذَافِيرِهَا) .

١٢ - التقسيم : -

ومنه قول زهير بن أبي سلمى :

فَإِنَّ الْحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ أَدَاءٌ أَوْ نَفَادٌ أَوْ جَلَاءٌ
ومن قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ .

ومنه قول نُصَيْب :

فَقَالَ فَرِيقُ الْقُصُومِ لَا ، وَفَرِيقُهُمْ نَعَمْ ، وَفَرِيقٌ قَالَ : وَيَحَكَ لَا أَدْرِي
وَوَقَّفَ أَعْرَابِي عَلَى مَجْلَسِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فَقَالَ : (رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَى
مِنْ سَعَةٍ ، أَوْ آسَى مِنْ كِفَافٍ ، أَوْ آثَرَ مِنْ قَلَةٍ) فَقَالَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيُّ : (مَا تَرَكَ
لأَحَدٍ عِذْرًا)^(١) .

١٣ - الجمع مع التفريق : -

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا
آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾^(٢) .

١٤ - الجمع مع التقسيم :

ومنه قول حسان بن ثابت :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ أَوْ حَاوَلُوا النِّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةً تِلْكَ فِيهِمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاعِلُمُ شَرِّهَا الْبِدْعُ

١٥ - الجمع مع التفريق والتقسيم : -

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ
فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ ، لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ، وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا

(١) المثل السائر ص ٢٩٣ .

(٢) الإسراء - بعض الآية ١٢ .

ففي الجنة خالدين فيها ، ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، عطاء غير مجذوذ^(١) .

قال القزويني^(٢) : (أما الجمع ففي قوله تعالى : ﴿ يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ فإن قوله (نفس) متعدد معنى ، لأن النكرة في سياق النفس تعم ، وأما التفريق ففي قوله ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ وأما التقسيم ففي قوله : ﴿ فأما الذين شقوا ﴾ إلى آخر الآية) .

ومن استيفاء أقسام الشيء قول زهير بن أبي سلمى :

وَأَعْلَمَ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمِ

١٦ - التجريد :

ومنه قول الأعشى :

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ الْمَطَى وَلَا يَشْرَبُ كَأْسًا بِكَفٍّ مَنْ بَخِلَا

وقوله تعالى : ﴿ لهم فيها دارُ الْخُلْدِ ﴾^(٣) .

وقول أرساة بن سُهَيْل :

إِنْ تَلَقَّيْنِي لَا تَرَى غَيْرِي بِنَاطِرَةٍ تَنْسَى السَّلَاحَ وَتَعْرِفُ جَبْهَةَ الْأَسَدِ

١٧ - المبالغة :

ومنها قول المهلهل مغاليا :

فَلَوْلَا الرِّيحُ أَسْمَعَ مَنْ بِحُجْرٍ صَلِيلَ الْبَيْضِ تُقْرِعُ بِالذُّكُورِ

وقد قيل : إنه أكذب بيت قالته العرب . فبين حجر وهي قصبة اليمامة وبين مكان الواقعة عشرة أيام .

ومنها قول زهير بن أبي سلمى :

(١) سورة هود ١٠٥ - ١٠٨ . مجذوذ : مقطوع .

(٢) الإيضاح ص ٥٠٩ .

(٣) فصلت - بعض الآية : ٢٨ .

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ بَأْوَلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

١٨ - المذهب الكلامي :-

ومنه قول زهير بن أبي سلمى :

وما يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلَ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيئُ إِلَّا وَشِجْهُ وَتَنْبُتُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (١).

ومنه قول الفرزدق :

بِكُلِّ أَمْرٍ نَفْسَانِ : نَفْسٌ كَرِيمَةٌ وَأُخْرَى يَعَاصِيهَا الْفَتَى وَيُطِيعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسِيكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى إِذَا قَلَّ مِنْ أَحْرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا

١٩ - حُسْنُ التَّعْلِيلِ :-

ويقول صاحب (الصبغ البديعي) (٢) : (أما حسن التعليل فلم أظفر له بمثال جاهلي ، وليس ذلك بغريب ، فالقوم مجبولون على تعليل - إن عللوها - تعليلاً حقيقياً مطابقاً للواقع ، ولا كذلك حسن التعليل مع ما فيه من خلافة وسحر واعتماد على الخيال ، وكذلك لم أجد له شاهداً من القرآن أو السنة ، وليس ذلك بغريب للعلة السابقة) .

غير أنه أورد بيتاً للنجاشي - وهو شاعر إسلامي - يهجو فيه بني العجلان :

وما سمي العجلان إلا لقوله . . خذ القَعْبَ واحْلِبْ أيها العبدُ واعْجِلْ .

ولا يكون البيت شاهداً صحيحاً لهذا النوع إلا إذا كان الشاعر يعني بقوله :

(خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل) يعني الهجاء بصفة البخل والإقتار .

٢٠ - التفریع :-

ومنه قول الأعشي :

(١) الروم - بعض الآية ٢٧ .

(٢) ص ٣٥ - ٣٦ .

ما رَوْضَةٌ من رِياضِ الحَزَنِ مُعْشِبَةٌ غَنَاءٌ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَاطِلٌ
يُضَاحِكُ الزَّهَرَ مِنْهَا كَوَكَبٌ شَرِيقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلٌ
يَوْمًا بِأَطْيَبِ مِنْهَا طِيبٌ رَائِحَةٌ ولا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الْأَجَلُ
ومنه قول الكميت :

أَحْلَامُكُمْ لِسَقَامِ الْجَهْلِ شَافِيَةٌ كما دِمَاؤُكُمْ تَشْفِي مِنَ الْكَلْبِ

٢١ - تأكيد المدح بما يشبه الذم :

ومنه قول النابغة الذبياني :
ولا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوقٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
ومن قوله تعالى ﴿ وما تَنْقِمُ مَنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنا ﴾ (١)

ومنه قول النابغة الجعدي :
فَتَى كَمَلْتَ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقَى مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا

٢٢ - التوجيه :

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا ﴾ (٢) .
قال الزمخشري : (غير مُسْمَعٍ) حال من المخاطب ، أي : اسمع وأنت
غير مُسْمَعٍ وهو قول ذو وجهين ، يحتمل الذم ، أي : اسمع منا مدعوا عليك
بـ (لا سَمِعْتَ) لأنه لو أُجِيبَتْ دعوتهم عليه لم يسمع ، فكان أصم غير مسمع ،
قالوا ذلك اتكالا على أن قولهم (لا سمعت) دعوة مستجابة . أو اسمع غير مجاب
ما تدعو إليه ، ومعناه غير مُسْمَعٍ جواباً يوافقك ، فكأنك لم تسمع شيئاً .

أو اسمع غير مُسْمَعٍ كلاماً ترضاه ، فسمعك عنه ناب .
ويحتمل المدح . أي : اسمع غير مُسْمَعٍ مكروهاً . من قولك (أَسْمَعْ
فُلَانٌ فُلَانًا) إِذَا سَبَّه .

(١) الأعراف - بعض الآية ١٢٦ .

(٢) النساء - بعض الآية ٤٦ .

وكذلك قوله : (راعنا) يحتمل (راعنا نكلمك) أي : ارقبنا وانتظرنا ، ويحتمل شبه كلمة عبرانية ، أو سريانية كانوا يتسابون بها وهي (راعينا) ، فكانوا سخرية بالدين وهُزأ برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام مُحْتَمِل ، ينوون به الشتيمة والإهانة ، ويظهرون به التوقير والاحترام^(١) .

٢٣ - الهزل الذي يراد به الجحد : -

ومنه قول امرئ القيس :

أَيَقْتُلُنِي أَنِّي شَغَفْتُ فُؤَادَهَا كَمَا شَغَفَ الْمَهْنُوءَ الرَّجُلُ الطَّالِي
وقد عَلِمْتُ سَلْمَى - وَإِنْ كَانَ بَعْلُهَا بِأَنَّ الْفَتَى يَهْذِي وَلَيْسَ بِفَعَّالٍ
والشاهد هنا قوله : (ليس بفعَّال) فظاھر هزل ، المراد منه الجحد ، وهو يهجو به بعل سلمى .

٢٤ - تجاهل العارف :

ومنه قول زهير بن أبي سلمى :

وما أَدْرِى وَسَوْفَ إِخْصَالُ أَدْرِى أَقَوْمُ آلِ جِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ
ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^(٢) .

يقول القزويني : (وفي مجيء هذا اللفظ على الإبهام فائدة أخرى - أي غير التعريض - وهي أنه يبعث المشركين على الفكر في حال أنفسهم وحال النبي ﷺ والمؤمنين)^(٣) .

وقول العرجي (وقيل هو للمجنون ، وقيل لدى الرمة ، وقيل للحسين بن عبد الله) :

بِإِلَهِ يَا طَبِيبَاتِ الْقَاعِ قُلْنَ لَنَا لَيْلَايَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى مِنْ الْبَشَرِ؟

(١) الإيضاح ص ٥٢٩ .

(٢) سبأ - بعض الآية ٢٤ .

(٣) الإيضاح ص ٥٣٢ .

٢٥ - القول بالموجب :

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

٢٦ - الأطراد :

ومنه قول الأعشى :

أَقْبَسَ بَنَ مَسْعُودِ بْنِ قَيْسِ بْنِ خَالِدٍ وَأَنْتَ امْرُؤُ تَرْجُو بَقَاءَكَ وَإِلَّ
ومنه قول النبي ﷺ : (الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ
إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ) .

ثانياً : من المحسنات اللفظة التي طرقها القدماء وعليها شواهد من
القرآن والسنة :

١ - الجناس :

ومنه قول امرئ القيس :

لَقَدْ طَمَحَ الظَّمَّاحُ مِنْ بَعْدِ أَرْضِهِ لِيَلْبَسَ مِنْ دَائِهِ مَا تَلَبَّسَا ^(٢)
ومنه قول النبي ﷺ : (اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

ومنه قول خالد بن صفوان لرجل من بني عبد الدار : (هَسَمَتَكَ هَاشِمٌ ،
وَأَمَّتَكَ أُمِيَّةٌ ، وَخَزَمَتَكَ مَخْزُومٌ ، فَأَنْتَ ابْنُ عَبْدٍ دَارِهَا ، وَمُنْتَهَى عَارِهَا) .

٢ - ردُّ العجزِ على الصِّدْرِ :

ومنه قول امرئ القيس :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَخْزِنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ فَيَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَّانٍ
ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ، وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ ^(٣) .

(١) المنافقون - بعض الآية ٨ .

(٢) الطماح : ذو الشراة .

(٣) الأحزاب - بعض الآية ٣٧ .

ومنه قول الشاعر الإسلامي الصَّمَّة بن عبد الله القشيري :
 تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَّارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَّارٍ^(١)
 وقول أبي الأسود الدؤلي (ظالم بن عمرو بن سفيان) :
 وما كُلُّ ذِي لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ وما كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبٍ
 ٣ - لزوم ما لا يلزم : -

ومنه قول طرفة بن العبد :
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ يُكْسِبُ أَهْلَهُ فَضُوحاً إِذَا لَمْ يُعْطَ مِنْهُ نَوَاسِبُهُ
 أَرَى كُلَّ مَالٍ لَا مَحَالَةَ ذَاهِباً وَأَفْضَلُهُ يَبْقَى وَإِنْ مَاتَ كَاسِبُهُ
 ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾^(٢) .
 ومنه قول الفرزدق :

مَنْعَ الْحَيَاةِ مِنَ الرِّجَالِ وَنَفْعَهَا حَذَقُ تَقْلِبِهَا النِّسَاءِ مِرَاضُ
 وَكَأَنَّ أَفْئِدَةَ الرِّجَالِ إِذَا رَأَوْا حَذَقَ النِّسَاءِ لِنَبْلِهَا أَغْرَاضُ
 ٤ - القلب : -

ومنه قوله تعالى : ﴿ كُلُّ فِي فَلَكٍ ﴾^(٣) . ﴿ وَرَبُّكَ فَكَبَّرَ ﴾^(٤) .
 ٥ - الموازنة :

كقوله تعالى : ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾^(٥) .
 ٦ - السجع :

من السجع الفطري قول قس بن ساعدة الإيادي في الجاهلية^(٦) : (أيها

(١) العرار : النرجس البري .

(٢) الضحى ٩ - ١٠ .

(٣) الأنبياء بعض الآية ٣٣ .

(٤) المدثر - ٣ .

(٥) الغاشية - ١٥ - ١٦ .

(٦) جمهرة خطب العرب ج ١ ص ٣٥ .

النَّاسُ اسْمَعُوا وَعُوا . مَنْ عَاشَ مَاتَ ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ لَيْلٌ دَاجٌ ، وَنَهَارٌ سَاجٌ ، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَجْرَاجٍ ، وَنَجْمٌ تَزْهَرُ ، وَبَحَارٌ تَزْخَرُ . . . الخ) .

وقول عبد المطلب بن هاشم يهنيء سيفَ بنِ ذي يزن باسترداد ملكه من الحبشة^(١) : (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى - أَيُّهَا الْمَلِكُ - أَحَلَّكَ مَحَلًّا رَفِيعًا ، صَعْبًا مَنِيعًا ، بِإِذْخَا شَامِخًا ، وَأَنْبَتَكَ مَنِيتًا طَابَتْ أُرُومَتُهُ ، وَعَزَّتْ جُرُثُومَتُهُ ، وَثَبَّتَ أَصْلُهُ ، وَبَسَقَ قَرَعُهُ ، فِي أَكْرَمِ مَعْدِنٍ ، وَأَطْيَبِ مَوْطِنٍ) .

ومن السجع المتكلف - سجع الكهان - قولُ سطيج بن مازن الكاهن العربي في تعبير رؤيا ربيعة بن نصر اللخمي أحد ملوك اليمن : (وَأُحْلِفُ بِمَا بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ مَنْ حَنَشَ ، لِيَهَيِّطَنَّ أَرْضَكُمْ الْحَبَشَ ، وَلِيَمْلِكَنَّ مَا بَيْنَ أُبَيْنَ إِلَى جَرَشَ) .

ومثله سجع شق أنمار الكاهن ، في تعبير الرؤيا السابقة نفسها : (أُحْلِفُ بِمَا بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ مِنْ إِنْسَانٍ ، لِيَنْزِلَنَّ أَرْضَكُمْ السُّودَانَ ، وَلِيُغْلِبَنَّ عَلَى كُلِّ طِفْلَةٍ الْبَنَانُ ، وَلِيَمْلِكَنَّ إِلَى مَا بَيْنَ أُبَيْنَ وَنَجْرَانَ) .

وقول مسيلمة الكذاب : (يَا ضَفْدَعُ نَقَى ، لِمَ تَنْقِينَ ، لَا الْمَاءُ تُكْذِّرِينَ ، وَلَا الشَّرَابُ تَمْنَعِينَ)^(٢) .

ثانياً : معالم البديع في أدب المحدثين^(٣) :

عرفنا في الجزء السابق أن المحسنات البديعية كانت موجودة في كلام العرب منذ عصر القدماء في الجاهلية ، وإن كانوا لا يعرفون لها اسماً علمياً ، ولا مصطلحاً فنياً مما عرفه المحدثون .

وعرفنا أيضاً أن هذه المحسنات لم تكن متعمدة ولا متكلفة ، ولا طاغية في

(١) السابق ج ١ ص ٣١ .

(٢) نهاية الإيجاز للرازي ص ٣٤ .

(٣) المقصود بالمحدثين هنا الذين جاءوا في القرن الثاني وما يليه ، وقد آثرنا هذه التسمية مسابقةً لبجهود من كتبوا في هذا الصدد حتى يومنا .

كلام القدماء ، بل هي عفوية صادقة تأتي في مكانها الملائم بما يقتضيه حال الكلام .

فماذا حدث إذن من تغيير وتجديد في كلام هؤلاء القدماء ؟ وكيف ومتى حدث ؟ وما هي العوامل التي أدت إلى التغيير ؟ وما أهم سمات ذلك التغيير ؟

الذي حدث هو أن الكلام بوجه عام ، والشعر على وجه الخصوص ليس ثوباً جديداً ازدادت زخارفه ونقوشه ، وتعددت ألوانه وتعقدت خيوطه ، فبعد أن كان الشعر ينساب في مجراه الطبيعي سلساً عذب المورد ، تتوازن عناصر مقوماته ، بدأ الشعراء يحدثون شيئاً من التغيير في تلك العناصر والمكونات ، فهذا يحتفل باللفظ زخرفة وتزييناً وتنميقاً ، وذاك يغرب في المعنى ويعقد ويفلسف ويمنطق ، وكلما مر جيل جاء بعده من يتبارى في صناعته ، حتى كاد الشعر في مرحلة متأخرة على مرحلة ابن المعتز يفقد شاعريته ، وأوشك على يد بعض الشعراء ألا يبقى منه إلا هيكل الوزن والقافية ، يقات تارة بالأحاجي والألغاز والتأريخ ، وأخرى يعيش على نظم العلوم النحوية والدينية ، وغيرها .

وبطبيعة الحال لم يكن التغيير ليحدث فجأة ، فمسيرة الآداب لا تتحول بين عشية وضحاها ، ولا تتغير بفرمان سلطاني ، إذ الشعر من المعروف أنه تعبير عن وجدان الأفراد والجماعات ، وانعكاس لأحوال الشعوب والأمم بكل مقوماتها الحضارية ، ثقافية ، واقتصادية واجتماعية ، وبقدر ما يصيب الأمم والجماعات من تغير وتحول وتطور ، بقدر ما يلحق الشعر من تغير وتطور شكلاً ومضموناً .

وقد ظل الشعر العربي يؤدي دوره في المجتمع العربي ، في شبه الجزيرة العربية طوال زمن ما قبل الإسلام ، حتى جاء الإسلام فأحدث ما أحدث في الشعر من تغير في المفاهيم والمقاييس العقلية ، والمفاهيم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي استوعبها الشعر جميعها وعبر عنها ، ورغم ذلك ظل محتفظاً بطابعه ومنهجه متكامل فيه عناصر الألفاظ والمعاني ، وإذا كان الإسلام قد ترك بصماته على الشعر فهذب خشونته ، ورقق ألفاظه وبخاسة عند الشعراء المسلمين الذين أحكم حفظ القرآن أساليبهم وكساها روعة وإشراقاً ، فإن طابع الشعر وطريقته

ومعناه ، وجزالة ألفاظه وعباراته ، كل ذلك ظل امتداداً لما كان عليه قبل الإسلام ، حتى الشعر السياسي الذي جَدَّ على المجتمع العربي نتيجة الصراع على الحكم ، كان ينزع إلى الروح الجاهلية بسبب (سياسة التحزب التي جرى عليها الأميون فأحيوا العصبية القبلية إحياء شديداً ، فانتفضت في الشعر وفي نفوس الناس انتفاضات جديدة صدمت شعور المسلمين المخلصين الذين يدعواهم إيمانهم إلى نبذ هذه الدعوات الجاهلية) ^(١) ، وظل شعراء العصر الإسلامي من أمثال جرير والفرزدق وذو الرمة والقطامي يسلكون نهج السابقين ، قرييين من زهير والنابغة والأعشى في طابع شعرهم وأغراضه ، ولذلك ظل علماء اللغة والنحو يحتجون بالشعر حتى أوائل القرن الثاني الهجري .

وبحلول القرن الثاني الهجري بدأ الشعر يخطو إلى التغيير بخطا حثيثة ، تبعاً لما أصاب المجتمع من تغير سريع شمل معظم نواحي الحياة ، وكانت حدود الدولة الإسلامية قد اتسعت بالفتوح والغزوات ، وأطل العرب بأنظارهم وأفكارهم على حضارات جديدة ، وحياة تختلف عن حياة البداوة المحدودة بعادات معينة ، وتقاليدها خاصة وتفكير يلتزم بقيم تلك الحياة ويقدها .

وكان العباسيون في النصف الأول من القرن الثاني الهجري (١٣٢ هـ) قد تمكنوا من إسقاط الحكم الأموي الذي انهكته الخلافات الحزبية وبددت قواه ، ونقل العباسيون عاصمة الخلافة من الشام إلى العراق إمعاناً في إعلان التأثير الفارسي ، فتحولت قبلة الشعراء والعلماء إلى العاصمة الجديدة يَغشَوْنَ مجالس خلفائها منادمين مادحين ، ابتغاء إيجال العطاء ، وإغداق الهبات ، فظهر التكسب بالشعر ، وأثرى كثير من الشعراء ، ومنهم سَلَمُ الخاسر ، يقول ابن رشيقي ^(٢) :
(وأما المجدودون في التكسب بالشعر ، والحُظوة عند الملوك ، فمنهم سَلَمُ الخاسر ، مات عن مائة ألف دينار ولم يترك وارثاً) . وفي سَلَمُ الخاسر يقول صديقه أبو العتاهية بيته الذي سار شطره الثاني مثلاً بين الناس :

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني ص ٣٠ .

(٢) العمدة ج ٢ ص ١٧٧ .

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمَ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ الْجِرْصُ أَعْنَاقَ الرَّجَالِ
ويذكر ابن رشيّق كثيرين غير سلم ممن تكسبوا بشعرهم ، وأغدق عليهم
الخلفاء بعطاياهم ، فعاشوا حياة الترف والبذخ والنعيم ، يقول الأصفهاني^(١) :
(وكان المهدي يعطي مروانَ وسلماً الخاسر عطية واحدة ، فكان سلمٌ يأتي باب
المهدي على البرذونِ الفارِه قيمته عشر آلاف درهم بسرج ولجام مفضّضين ،
ولباسه الخز والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحة المسك
والطيب والغالية تفوح منه) .

كان إذن من الطبيعي أن يحدث في الشعر تغيير يتفق وما طرأ على الحياة من
تغيير اقتصادي وسياسي وثقافي واجتماعي ، إذ بلغت الدولة العربية في العصر
العباسي درجة عالية من التحضر والإحساس بالأمان وما ينتج عن هذا الإحساس
من بحث عن المتع والملذات ، ساعد على ارتيادها والانغماس فيها رخاء غزير ،
ونعيم وفير ، يتدفق من كل أطراف الدولة الفتية الفسيحة ، فاستبدلت الحياة
العربية بخشن الملابس خُزاً ، وبالمضارب والخيام قصوراً ، وبالرمال والأحجار
طنافس وبسطاً ، وبالعباءة مطارف وغلائل ، واستحالت الطبائع الجافية فيضاً من
الركة والنعومة والسلاسة ، ووقعت الأنظار على أبهى المناظر ، وأجمل المشاهد
من حدائق غناء ، وبساتين فيحاء ، تجري من تحتها أنهار وغدران تبعث الحياة
والجمال في كل شيء .

أضف إلى ذلك أن غلبة العنصر الفارسي إلى جانب حياة الترف والنعيم
أتاحت الفرصة إلى ظهور عقائد ودعوات جديدة كالزندقة والشعبوية ، حيث أتيح
للفرس إحياء تراثهم ، ونشر عقائدهم وبث أفكارهم ، فأخذ التحرر الديني
والأخلاقي يجد له متسعاً في الأفكار والأقوال ، فظهر الغزل الماجن الذي تعدى
أوصاف النساء إلى الغلمان ، وكثرت أوصاف الخمر ومجالسها وآثارها ، وكان أبو
نواس زعيم هذا الاتجاه .

هذه الحياة الجديدة المتجددة ، كان من الطبيعي أن يستوعبها الشعر

(١) الأغاني ج ٢١ ص ٧٨ .

ويصورها ويعبر عن كل ما أحدثته في الطبائع والوجدان والعقائد والمذاهب ، وبالتالي كان على الشعر أن يجد ويجدد وسائله التي تعينه على إبراز كل تلك الجوانب الجديدة العديدة ، فنشطت صناعة الشعر وراجت ، وتسابق الشعراء إلى وسائل التحسين ، وعناصر الزخرفة والتزيين ، لإبراز ما يحيط بهم من جمال ، وتصوير ما يعيشونه من رخاء وترف ، والتعبير عما أستوعبوه من ثقافات وعلوم جديدة غذتها حركة ترجمة نشطة لكثير من العلوم العقلية من فلسفة ومنطق وما شابه .

وكانت بداية هذه الحركة النشطة تسير في اتجاهين : اتجاه يترسم خطاً القدماء في صناعة الشعر ، حافظاً أصحابه على منهج الشعر القديم وصياغته وعموده ، لا يخرجون عنه إلا فيما دعتههم إليه صفات عقليتهم الجديدة ، ومن هؤلاء سَلَمُ الخاسر ، ودعبل الخزاعي ، ومروان ابن حفصة ، وعلي بن الجهم ، وابن الرومي ، والمتنبي .

وهذا الاتجاه وصفه الدكتور شوقي ضيف بأنه (مذهب الصنعة والصانعين الذين كانوا يفهمون حرفتهم في الحدود التي رسمها زهير ، فهم يُعَنَوْنَ بألفاظهم وأساليبهم ، وصورهم البيانية في الدائرة التي كان يتصورها زهير)^(١) والاتجاه الثاني كان أصحابه يجارون روح العصر ، تمشياً مع كل ما استجد في حياتهم ومجتمعهم ، ومنهم بشار ، وابن هرمة ، وأبو نواس ، والعتابي ، ومسلم بن الوليد ، وأبو تمام ، والبحتري ، وابن المعتز .

وهذا الاتجاه وصفه الدكتور شوقي ضيف بأنه (مذهب التصنيع والمصنعين الذي يعتمد على الأناقة في التعبير الفني والزخرف)^(٢) .

غير أن أصحاب الاتجاه الثاني وهم الذين يمثلون مذهب التجديد في الصنعة والإكثار من المحسنات البديعية ، لم يكونوا في نظر علماء العربية

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٧٤ .

(٢) انظر مناقشة الدكتور هدارة رأى الدكتور شوقي ضيف في موقف بشار من المذهبين . (اتجاهات الشعر ص ٦٠٥ - ٦١١) .

الأوائل ، على درجة متساوية من حيث عنايتهم واحتفالهم بالمحسنات ، إذ تباينت أحكام العلماء في اعتبار من يكون أسبقهم إلى هذا ، وأقدم آراء العلماء في ذلك هو رأي الجاحظ - رغم أن مصطلح البديع في وقت الجاحظ لم يكن قد تحدد بحدوده العلمية التي وضحت فيما بعد - يقول الجاحظ^(١) : (ولم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة) .

والأمدي في حديثه عن البديع عند أبي تمام ، يقرر أن مسلم بن الوليد هو الأسبق^(٢) يقول : (ليس الأمر لاختراعه لهذا المذهب على ما وصفته ، ولا هو أول فيه ، ولا سابق إليه ، بل سلك في ذلك سبيل مسلم واحتذى حذوه) .

ولكن الجرجاني يعتبر أبا تمام قدوة أهل البديع حين يقول عنه^(٣) : (وأنا أدين بتفضيله وتقديمه ، وأنتحل موالاته وتعظيمه ، وأراه قبلة أصحاب المعاني ، وقدوة أهل البديع) .

ويحكم ابن رشيق على مسلم بأنه أسهل شعراً من حبيب ، وأقل تكلفاً ، وهو أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ، وأنه زهير المولدين ، ثم يورد ابن رشيق تصنيفاً لأهل البديع فيقول^(٤) : (وقالوا . . . أول من فتن البديع من المحدثين بشار بن برد ، وابن هرمة ، ثم اتبعهما مقتدياً بهما كلثوم بن عمرو العتابي ، ومنصور النمري ، ومسلم بن الوليد وأبو نواس ، واتبع هؤلاء حبيب الطائي ، والوليد البحرني ، وعبد الله بن المعتز فأنتهى علم البديع والصنعة إليه) .

وتبعاً لهذا التصنيف نجد ثلاث طبقات في البديع ، أولها بشار وابن هرمة ، والطبقة التالية المقتدية بهما هي طبقة العتابي والنمري ومسلم وأبي نواس . أما الطبقة الثالثة فهي طبقة أبي تمام والبحترى وابن المعتز .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٩ .

(٢) الموازنة ص ٦ .

(٣) الوساطة ص ٢٥ .

(٤) العمدة ج ١ ص ١١٩ .

ويكاد يتفق العلماء على أن بشاراً هو رأس مدرسة البديع من المحدثين ،
وبقية الأسماء تتفاوت درجاتهم فيه من حيث التكلف وعدمه ، والسهولة والوعورة ،
والقلة والكثرة .

وأياً ما كان اختلاف درجات البديع عند الشعراء من بشار حتى ابن المعتز فلا
غرو أن مرحلتهم كانت مرحلة ازدهار وتلوين وتنوع وابتكار في ألوان البديع أدت
إلى استوائه علماً محدداً المعالم واضح الهوية ، وما أن انتهت تلك الفترة بعد ابن
المعتز حتى بدأ البديع في التدهور ، وأصبح صنعة لا يجيدها إلا قلة من الشعراء ،
أما جمهورهم فاتجه نحو التكلف الممقوت ، والتعقيد الشائن ، فذبلت المغاني
حين توجهت الهمم إلى الألفاظ ، وكادت الأفكار تنحصر في نظم الألغاز
والأحاجي والتلاعب بالألفاظ على حساب المعنى .

ولنأخذ مثلاً لنوع واحد من البديع في شعر فترة بشار حتى ابن المعتز ،
وليكن الطباق ، وبقية الأنواع ستأتي شواهدا عند الحديث عن أنواع البديع
تفصيلاً .

فمن طباق بشار بن برد أول من فتح البديع ومبتكر (حسن التعليل) قوله :

حَتَامَ قَلْبِي مَشْغُولٌ بِذِكْرِكُمْ يَهْذِي وَقَلْبُكَ مَرْبُوطٌ بِنِشْيَانِي
لَهْفِي عَلَيْهَا وَلَهْفِي مِنْ تَذْكُرِهَا يَذْنُو تَذْكُرُهَا مِنِّي وَتَنَانِي
إِنِّي لَمُنْتَظَرٌ أَقْصَى الزَّمَانِ بِهَا إِنْ كَانَ أَذْنَاهُ لَا يَصْفُو لِحَرَّانِ

فكل بيت يشتمل على مطابقة ، طابق في البيت الأول بين (الذِّكْرِ
والنسيان) وفي البيت الثاني بين (الدُّنُوُّ والنَّاي) وفي الثالث بين (الأقصى
والأدنى) . وهذه الكثرة لم نعهد لها في الشعر القديم .

ويقول ابن هرمة مطابقاً بين اليُمْنِ والشُّؤْمِ :

وَإِنِّي لَمَيِّمُونَ جَوَاراً وَإِنِّي إِذَا زَجَرَ الطَّيْرَ الْعِدَا لَمَشُومُونَ

ويقول العتابي مطابقاً بين الغنى والفقر ، وبين الحديث والقديم في بيت
واحد :

تَلُومُ عَلَى تَرْكِ الْغِنَى بِاهْلِيَّةٍ زَوَى الْفَقْرُ عَنْهَا كُلَّ طَرْفٍ وَتَالِدٍ

ويطابق منصور النمري بين الرفعة والضعة وهو يمدح الرشيد :

إِذَا رَفَعْتَ امْرَأً فَاللَّهُ يَرْفَعُهُ وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ الْأَقْوَامِ مُتَضِعُ

أما أبو نواس فيقول مطابقاً بين الإيسار والإعسار مرتين في بيت واحد :

كَمْ مُوسِرٍ أَعْسَرَ فِي بُرْهَةٍ وَمَعْسِرٍ فِي مِثْلِهَا أَيْسَرَا

ويقول :

مُتْ بَدَاءِ الصَّمْتِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ

فهو يطابق بين (الصمت والكلام)

أما مسلم بن الوليد فيطابق بين المدح والهجاء ، وبين الدقة والجلالة ،
وبين العزة والذلة في بيتين يهجو فيهما دُعْبَلَا الخزاعي فيقول :

أَمَّا الْهَجَاءُ فَدَقٌّ عِرْضُكَ دُونَهُ وَالْمَدْحُ عَنْكَ كَمَا عَلِمْتَ جَلِيلُ

فَاذْهَبْ فَأَنْتَ طَلِيقُ عِرْضِكَ إِنَّهُ عِرْضُ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتَ ذَلِيلُ

ونأتي إلى مطابقة أبي تمام لنرى فيها العمق والمنطق والفلسفة والعلم مما
يتطلب فهمه الإلمام بمدلولات تلك العلوم والرجوع إليها وفهمها ، فإمّا يحتاج
فهّمه إلى الإلمام بعلم أصول الدين قوله :

كَمْ فِي النَّدَى لَكَ وَالْمَعْرُوفِ مِنْ بَدْعٍ إِذَا تُصَفِّحْتَ اخْتِيرْتَ عَلَى السُّنَنِ

فهو يطابق بين البدع والسُنن .

وقوله :

لَنْ يَنَالَ الْعُلَا خُصُوصاً مِنَ الْفِتَنِ سِوَانِ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَدَاهُ عُمُومَا

يطابق بين الخصوص والعُموم وذلك من مباحث المنطق .

وقوله :

هَبْ مَنْ لَهُ شَيْءٌ يَرِيدُ حِجَابَهُ مَا بَالُ لَا شَيْءٍ عَلَيْهِ حِجَابُ

فهو يطابق بين الوجود والعدم في قوله (شيء ولا شيء) وهذا من عرف الفلاسفة .

وقوله :

صَاغَهُمْ ذُو الْجَلَالِ مِنْ جَوْهَرِ الْمَجْدِ وَصَاغَ الْأَنَامَ مِنْ عَرَضِهِ
يطابق بين الجوهر والعرض وذلك من مباحث علم الكلام لأن الجوهر أثبت من العرض عند المتكلمين .

ومن طباقه قوله :

مِنْ قَطْعِ أَوْصَالِهِ تَوْصِيلُ مَهْلَكَتِي وَوَصْلِ الْحَاضِظَةِ تَقْطِيعُ أَنْفَاسِي
أما طباق البحتري فهو عذب سائح يسير ، لا يحتاج إلى تعليل أو تفسير أو رجوع إلى كتب العلماء :

مِنِّي وَصَلٌ وَمِنْكَ هَجْرٌ وَفِي ذُلٍّ وَفِيكَ كِبَرٌ
وَمَا سِوَاءِ إِذَا التَّقِينَا سَهْلٌ عَلَى خُلَّةٍ وَوَعْرٌ
قَدْ كُنْتُ حُرًّا وَأَنْتَ عَبْدٌ فَصِرْتُ عَبْدًا وَأَنْتَ حُرٌّ
بَرَّحَ بِي حَبْكُ الْمَعْنَى وَغَرَّنِي مِنْكَ مَا يَغُرُّ
أَنْتَ نَعِيمِي وَأَنْتَ بُؤْسِي وَقَدْ يَسُوءُ الَّذِي يَسُرُّ

ويقول في وصف بركة المتوكل :

فَحَاجِبُ الشَّمْسِ أحياناً يُضَاحِكُهَا وَرَيْقُ الْغَيْثِ أحياناً يُبَاكِيهَا
ذَلِكَ وَادِي الْأَرَاكِ فَاحْبَسْ قَلِيلاً مُقْصِراً مِنْ صَبَابَةٍ أَوْ مُطِيلَا

وابن المعتز كالبحتري في السلاسة والسهولة فهو يطابق ويقابل حين يقول :

رُبَّ أَمْرٍ تَتَّقِيهِ جَرُّ أَمْرٍ تَرْتَجِيهِ
خَفِيَ الْمَحْبُوبُ مِنْهُ وَبَدَا الْمَكْرُوهُ فِيهِ

فهو يطابق بين (تتقيه وترتجيه) في البيت الأول ، ويقابل بين (خفي المحبوب وبدا المكروه) في البيت الثاني .

الفصل الثالث

أنواع البديع

١ - المحسنات المعنوية

٢ - المحسنات اللفظية

قسم علماء البلاغة المحسنات البديعية قسمين أساسيين ، أحدهما يتعلق بالمعنى والآخر يتعلق باللفظ ، وسمى الأول المحسنات المعنوية والآخر المحسنات اللفظية .

وقد عرّف القزويني علم البديع بأنه (علم يعرف به وجوه تحسين الكلام ، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة)^(١) .

وفيما يلي نتناول بالحديث بعض هذه المحسنات البديعية .

أولاً : المحسنات المعنوية :-

١ - المطابقة : وتسمى الطباق والتضاد أيضاً .
وتكون المطابقة إما بلفظين من نوع واحد ، أي أن يكون اللفظان اسمين أو فعلين أو حرفين .

أما المطابقة بين اسمين فهي كقوله تعالى :
﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾^(٢) .

فالمطابقة بين (أيقاظ ورقود) .

وكقول الرسول ﷺ : (خير المال عين ساهرة لعين نائمة) .

فالمطابقة هنا بين (ساهرة ونائمة) .

وأما المطابقة بين فعلين فهي كقول زهير بن أبي سلمى :

(١) الإيضاح ص ٤٧٧ .

(٢) الكهف - بعض الآية ١٨ .

لَيْتَ بَعَثَرِ يَصْطَاذُ الرُّجَالِ إِذَا مَا كَذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

فطابق بين الفعلين (كذب وصدق) .

وكقول أبي صخر الهذلي :

أَمَّا وَالَّذِي أَبْكَى وَأَضْحَكَ وَالَّذِي أَمَاتَ وَأَحْيَا وَالَّذِي أَمَرُهُ الْأَمْرُ

فطابق بين (أبكى وأضحك) وبين (أَمَاتَ وَأَحْيَا) .

والمطابقة بين حرفين تكون كقوله تعالى :

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾^(١) .

والجمع بين حرفي الجر (اللام وعلى) مطابقة إذ تتضمن اللام هنا معنى المنفعة ، وتتضمن (عَلَى) معنى المَضَرَّة .

ومن ذلك أيضاً قول مجنون ليلي :

عَلَى أَنِّي رَاضٍ بِأَنْ أُحْمِلَ الْهَوَى وَأَخْلَصَ مِنْهُ لَا عَلَى وَلَا لِيَا

أو تكون المطابقة بين لفظين من نوعين ، أي بين اسم وفعل مثلاً : كقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾^(٢) .

وأنواع المطابقة ثلاثة هي :

١ - مطابقة الإيجاب .

٢ - مطابقة السلب .

٣ - إيهام التضاد .

أما الأول فمثاله ما مر بك من الأمثلة السابقة . والثاني هو :

مطابقة السلب : وهي المطابقة التي يختلف فيها اللفظان إيجاباً وسلباً ، أو

كما عرفها القزويني بقوله^(٣) : (طباق السلب وهو : الجمع بين فعلى مصدر واحد مثبت ومنفى ، أو أمر ونهى) .

(١) البقرة - ٢٨٦ .

(٢) الأنعام - بعض الآية ١٢٢ .

(٣) الإيضاح - ٤٨٠ .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

ومنه قول المتنبي :

ولقد عُرِفْتُ ، وما عُرِفْتُ حَقِيقَةً ولقد جُهِلْتُ ، وما جُهِلْتُ خُمُولًا
وقول امرئ القيس :

جَزَعْتُ ولم أَجْزَعْ مِنَ الْبَيْنِ مَجْزَعًا وَعَزَّيْتُ قَلْبِي بِالْكَوَاعِبِ مُوَلَّعًا
وقول بعضهم يهجو :

خُلِقُوا وما خُلِقُوا لِمَكْرُمَةٍ فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا
رُزِقُوا وما رُزِقُوا سَمَاحَ يَدٍ فَكَأَنَّهُمْ رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا

ومثال الأمر والنهي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَخَشَوْا ﴾ (٢) .

٢ - إيهام التضاد : وهو أن تتوهم التضاد بين لفظين وهما ليسا متضادين وبعبارة أخرى : هو أن تعبر عن معنيين غير متضادين بلفظين متضادين ، كقول دِعل بن علي الخُزاعي :

لَا تَعْجَبِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى
فإنَّ (ضحك) هنا من حيث المعنى ليس ضد الكلمة (بكى) ، لأن ضحك المشيب يقصد به ظهور الشيب بوضوح فهو كناية عن كثرة الشيب ، ولكن من حيث اللفظ يوهم بالمطابقة .
ومن ذلك قول أبي تمام :

مَا إِنْ تَرَى الْأَحْسَابَ بَيْضًا وَضُحَا إِلَّا بِحَيْثُ تَرَى الْمَنَايَا سُودًا
وقول الشاعر :

يَبْدَى وَشَاحًا أَبْيَضًا مِنْ سَيِّبِهِ وَالْجَوُّ قَدْ لَبَسَ الْوِشَاحَ الْأَغْبَرَ (٣)

(١) الروم ٦ ، ٧ .

(٢) المائدة بعض الآية ٤٤ .

(٣) نَوْنُ الممنوع من التنوين في قوله (أبيضاً) وذلك جائز للضرورة الشعرية .

إن اللفظين (أبيض وأغبر) يوهمان بأنهما متضادان ، وهما ليس كذلك لأن الأبيض ليس ضِدًّا للأغبر .

وقد يكون معنى التضاد ظاهراً مباشرة كما مرَّ من الأمثلة ، أو يكون خفياً غير مباشر . وذلك كقوله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ، فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾ (١) .

فالمطابقة هنا بين (أُغْرِقُوا وأُدْخِلُوا نارا) لأن إدخال النار معناه الإحراق ، والإحراق هو ضد الإغراق وليس (أَدْخَلُوا النار) .

ومثله ما يلحق الطباقي أيضاً كقوله تعالى : ﴿ أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) .

فإن (الرحمة) مسببة عن (اللين) الذي هو ضد الشدة .
ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٣) فإن ابتغاء الفضل يستلزم الحركة المضادة للسكون ، والعدول عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل لأن الحركة ضربان : حركة لمصلحة ، وحركة لمفسدة ، والمراد هنا الأولى لا الثانية .

٣ - المقابلة : - وقد جعلها القزويني من أنواع المطابقة ، وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين ، أو معان متوافقة ، ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب .

فمثال مقابلة معنيين بمعنيين قوله تعالى :
﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً ، وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ (٤) .

وقول النبي ﷺ :

(إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ) .

ومنه قول النابغة الذبياني :

(١) نوح - بعض الآية ٢٥ .

(٢) الفتح - بعض الآية ٢٩ .

(٣) القصص - بعض الآية ٧٣ .

(٤) التوبة - بعض الآية ٨٢ .

فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنْ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا

فالمقابلة في الآية الكريمة بين (يضحكوا قليلا) و(يكونوا كثيراً) .

وفي بالحديث الشريف بين (يكون ... زانه) و(ينزع ... شأنه) .

وفي بيت النابغة بين (يسر صديقه) و(يسوء الأعدايا) .

ومثال مقابلة ثلاثة معانٍ بثلاثة ، قول المتنبي :

فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ وَلَا الْبُخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُدِيرٌ^(١)

فالمقابلة هنا بين (الجود - يفني) و(البخل - يبقى) و(الجد - يدير) .

ومقابلة أكثر من ثلاثة معانٍ بعددها قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾^(٢) .

ومنها قول المتنبي :

أَزْوَْرُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِى بِي

وكلمة الليل هنا لا يقابلها كلمة (الصبح) لأن ضد الليل هو النهار ولكن

المقابلة بين الليل والصبح تجوز على مذهب من يجيزون المقابلة بين الأضداد

وغير الأضداد . وهناك من لا يجيزون المقابلة إلا بين الأضداد وهذا رأي السكاكي

يقول : (المقابلة : أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وضديهما ، ثم إذا

شرطت هنا شرطاً شرطت هناك ضده كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى

وَاتَّقَى ... ﴾ حتى آخر الآيتين اللتين سبق ذكرها .

وكل من المطابقة والمقابلة من المحسنات البديعية التي تعطى الكلام نوعاً

من القوة والتأثير في النفس ، وتضفي على القول رونقاً وبهاء ، وتوضح المراد من

القول ، وتجعل تلاهماً بين الألفاظ وارتباطاً قوياً ، حيث تستدعي المعاني بعضها

(٢) الجدُّ بفتح الجيم هو الحظ . ومعنى البيت أن الكرم لا يفني المال إذا كان الحظ مقبلاً والعكس

صحيح .

(٢) الميل - الآيات من ٥ - ١٠ .

بعضاً إما استدعاء تشابه أو استدعاء تضاد ، وقد قيل (ويضدها تتميز الأشياء) .
ويشترط في نجاح المطابقة والمقابلة أن تكون كل منهما مطبوعة غير متكلفة ولا
مُتَصَنَّعة حتى لا تفسد المعنى وينفر منها الذوق السليم ، وبالتالي تفقد تأثيرها في
السامع أو القارئ ولا ينتج عنها تحسين قول أو معنى .

٤ - مراعاة النظير : أو التناسب أو الائتلاف أو التوفيق :

وهو أن يجمع بين اثنين في الكلام جمع تناسب لا جمع تضاد كقوله
تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾^(١) .

أو كقول من مدح المهلبى وزير معز الدولة البويهى قائلاً :

(أنت أيها الوزير إسماعيلي الوعد ، شعبي التوفيق ، يوسف العفو ،
مُحَمَّدُ الخُلُقِ) فإنه راعى في مدحه الوزير أن يجعله مناظراً في كل صفة من
الصفات التي مدحه بها الآخر ، أو اشتهر بهذه الصفة ، واستقى هذه الصفات
وأصحابها من القرآن الكريم^(٢) .

ومن مراعاة النظير أيضاً قول أسيد بن عنقاء الفزارى :

كَأَنَّ الثَّرِيَّاءَ عُلِّقَتْ فِي جَبِينِهِ وَفِي خَدِّهِ الشُّعْرَى ، وَفِي وَجْهِهِ الْبَذْرُ

وقول ابن خفاجة الأندلسي في وصف الفرس :

مَنْ جُلُنَّارٍ نَاضِرٍ خَدُّهُ وَأُذُنُهُ مِنْ وَرَقِ الْأَسْرِ

فالمناسبة هنا بين الجلنار والأس والنضارة .

وقول ابن رشيق في مدح الأمير تميم أمير صنهاجة بافريقية :

أَصَحُّ وَأَقْوَى مَا سَمِعْنَاهُ فِي النَّدَى مِنْ الْخَبَرِ الْمَأْثُورِ مِنْ قَدِيمٍ
أَحَادِيثُ تَرَوِيهَا السُّيُوفُ عَنْ الْحَيَا عَنْ الْبَحْرِ ، عَنْ كَفِّ الْأَمِيرِ تَمِيمٍ

(١) الرحمن آية ٥ - والحسبان هو الحساب المعلوم ، والتقدير المحكم الدقيق .

(٢) في صدق إسماعيل انظر سورة مريم : ٥٤ - ٥٥ ، وفي توفيق شعيب . سورة هود : ٨٨ وفي عفو

يوسف سورة يوسف : ٩٢ . وفي سمو خلق محمد عليه الصلاة والسلام سورة القلم : ٤ .

فإنه ناسب فيه بين الصحة ، والقوة ، والسماع ، والخبر المأثور ، والأحاديث ، والرواية ، ثم بين السيل ، والحيا ، والبحر ، وكف تميم ، مع ما في البيت الثاني من صحة الترتيب في العننة ، إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر ، كما يقع في سند الأحاديث ، فإن السيول أصلها المطر ، والمطر أصله البحر على ما يقال ، ولهذا جعل كف الممدوح أصلاً للبحر مبالغة .

وتشابه الأطراف : من أنواع مراعاة النظر عند بعض العلماء . وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى وذلك كقوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾^(١) فإن اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر ، والخبرة تناسب من يدرك شيئاً ، فإن من يدرك شيئاً يكون خبيراً به .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾^(٢) قال : ﴿ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ لينبه على أن ماله ليس لحاجة ، بل هو غنى عنه ، جواد به ، فإذا جاد به حمده المنعم عليه .

وإيهام التناسب : أيضاً من أنواع مراعاة النظر

وهو أن تجمع بين لفظين غير متناسيين ، بلفظين يكون لهما معنيان متناسبان وإن لم يكونا مقصودين ، ولذلك يلحق بمراعاة النظر .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ، وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾^(٣) فقوله تعالى ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي بحساب معلوم وتقدير دقيق محكم ، وقوله تعالى ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ هو أن النجم هنا ليس نجم السماء ، بل هو النبات الذي ينجم من الأرض لا ساق له كالبقول والشجر الذي لا ساق له ، ويسجدان أي ينقادان لله فيما خلقا له . فالنجم بمعنى النبات ، وإن لم يكن مناسباً للشمس والقمر ، فقد يكون بمعنى الكواكب وهو مناسب لهما ، ولهذا سُمي إيهام التناسب .

(١) الأنعام - ١٠٣ .

(٢) الحج - ٦٤ .

(٣) الرحمن - ٥ .

٥ - التّفوف : -

ويقول عنه صاحب الطراز : (وهو في علم البديع في الذروة العليا . . . واشتقاقه من قولهم : بُرِدَ مُقَوِّفٌ ، وهو الذي يكون على لون ثم يخالطه لون أبيض)^(١) .

والتّفوف هو أن يؤتى في الكلام بمعان متلازمة في جمل مستوية المقادير أو متقاربتها ، ويكون التّفوف حَسَنًا إذا كان خاليًا من الركافة التي تؤدي إلى ثقل النطق .

ومنه قول ابن زيدون :

تَهْ أَحْتَمِلُ ، وَاحْتِكِمْ أَصْبِرْ ، وَعِزَّاهُنْ وَدَلْ أَخْضَعْ ، وَقُلْ أَسْمَعْ ، وَمُرْ أَطْعِ^(٢)

ويكون التّفوف إما بالجمل المتوسطة كما في بيت ابن زيدون ، وإما بالجمل الطويلة وهو قليل ، وإما بالجمل القصيرة وهو الأكثر ولا يخلو من تعسف .

ومنه قول المتنبي لسيف الدولة يسأله بعض الحاجات ، وقد اشتمل بيت المتنبي على أربعة عشر فعل أمر :

أَقْلُ أَنْتَلْ أَقْطَعْ أَحْمِلْ عَلَّ سَلَّ أَعِدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ اذْنُ سُرَّ صِلْ^(٣)

ومنه قول ديك الجن الشاعر المتوفي سنة ٢٣٥ هـ .

احْلُ ، وَاْمُرْ ، وَصَرِّ وَأَنْفَعْ ، وَلِنْ ، وَأَخْشِنْ وَرِشْ ، وَابْرِ ، وَانْتَدِبْ لِلْمَعَالِي

فبعض البيت كما ترى من مراعاة النظير وبعضه من المطابقة^(٤) .

(١) الطراز للعلوي ص ٨٤ .

(٢) البيت في الغزل . ته : الأمر من تاه يتيه بجماله ، دل : فعل أمر من دل يدل دلالة وهو يقول في البيت لحبيبه : سأحمل تيهك وأصبر على تحكّمك ، وأهون أمام اعتزازك بنفسك وأخضع لدلالك ، وأسمع قولك ، وأطيع أمرك .

(٣) فهو يطلب من سيف الدولة أن يقلل عثرته ، ويشمله بنواله ، ويعطيه فرسا للحمل ، وأن يعليه ويسليه بعطايا ، ويعيد ذلك ويزيد له العطاء وأن يقابله هاشًا هاشًا وأن يفضل عليه ويدينه منه ، ويسره ويصله .

(٤) يقول : كُنْ حُلُوًّا وَمُرًّا ، وضربي وانفعني ، وكن لنا وخشنا ، ورش وابر كناية عن القوة إذا راش السهم وبراه أى استعد للقتال ، وانتدبني للمعالي .

وكقول بعضهم يصف السحاب :

تَسْرِبَلْ وَشِيَا مِنْ خُزُوزِ تَطَرَّرَتْ مَطَارِفُهَا طُرُزًا مِنْ الْبَرْقِ كَالْتَّبْرِ
فَوْشَى بِلَا رَقْمٍ ، وَنَقْشُ بِلَا يَدٍ وَذَمْعُ بِلَا عَيْنٍ ، وَضِحْكُ بِلَا ثَغْرِ

والبيت الثاني مثال للتفويف الذي يخلو من التكلف والتعسف ، كما في بيت ديك الجن وبيت المتنبي .

ومما يخلو أيضاً من التكلف والتعسف قول عنترة :

إِنْ يَلْحَقُوا أَكْرُرُ ، وَإِنْ يَسْتَلْحِقُوا أَشُدُّ ، وَإِنْ نَزَلُوا بِضْنِكَ أَنْزِلِ

٦ - الاستطراد :

وهو ذكر الشيء في غير محله لمناسبة ، وذلك بأن يخرج المتكلم من الكلام الذي هو مسترسل فيه إلى غيره باستدعاء مناسبة ، ثم يرجع إلى ما كان فيه .

وبعبارة أخرى هو : الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به لم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني .

ومثال ذلك قول السموءل بن عادياء اليهودي :

وإِنَّا أَنْاسٌ لَا نَرَى الْمَوْتَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ
يُقَرَّبُ حُبُّ الْمَوْتِ أَجَالَنَا لَنَا وَتَكْرَهُهُ أَجَالُهُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا وَاحِدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ

فسياق القصيدة للفخر ، وتنسيق مآثر المجد ، واستطرد منه الشاعر إلى هجاء عامر وسلول ، ثم عاد لغرضه الأصلي .

ومنه قول عبد المطلب على ما قاله النابلسي في بديعته :

لَنَا نَفُوسٌ لِنَيْلِ الْمَجْدِ عَاشِقَةٌ فَإِنْ تَسَلَّتْ أَسْلَنَاهَا عَلَى الْأَسَلِ
لَا يَنْزِلُ الْمَجْدُ إِلَّا فِي مَنَازِلِنَا كَالنَّوْمِ لَيْسَ لَهُ مَأْوَى سِوَى الْمُقْلِ

فسياق الكلام هنا في الفخر ، واستطرد منه إلى ذكر النوم الذي ليس له مأوى إلا في المقل .

٧ - الأطراد : -

وهو غير الاستطراد ، وقد عَرَّفَه صاحب الطراز بقوله : (. . . فإنه ذكر اسم الممدوح بعينه ليزداد إبانةً وتوضيحاً على ترتيب صحيح ونسق مستقيم من غير تكلف في النظم ، ولا تعسف في السبك ، حتى يكون ذكر الاسم في سهولته كاطراد الماء وسهولة جريه وسيلانه)^(١) .

ويستحسن أن يذكر اسم المقصود واسم من أمكن من آبائه على الترتيب .

وذلك كقول الأعشى :

أَقْسُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ قَيْسِ بْنِ خَالِدٍ وَأَنْتَ امْرُؤٌ يَرْجُو شَبَابَكَ وَائِلُ
وَقَالَ دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ :

قَتَلْنَا بَعْبِدَ اللَّهِ خَيْرَ لِدَاتِهِ ذَوَابَ بْنَ أَسْمَاءَ بْنَ زَيْدِ بْنِ قَارِبِ
وَقَوْلُ آخَرَ :

مَنْ يَكُنْ رَامَ حَاجَةً بَعْدَتْ عِنْدَ لَهُ وَأُعِيَتْ عَلَيْهِ كُلُّ الْعِيَاءِ
فَلَهَا أَحْمَدُ الْمُرْجَى ابْنُ يَحْيَى بْنِ مُعَاذِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ رَجَاءِ

ويقول صاحب الطراز : (فأما ذكر الأمهات والجداات فليس محمودا عند البلغاء وأهل العلم بالمدائح الشعرية لما فيه من الركة ، وإنزال قدر الممدوح ، وقد عيب على أبي نواس في مدحه لمحمد ذكره لأُمِّهِ)^(٢) .

يقول أبو نواس في مدح الأمين :

أَصْبَحْتَ يَا بْنَ زُبَيْدَةَ ابْنَةَ جَعْفَرٍ أَمَلًا لِعَقْدِ حَبَالِهِ اسْتِحْكَامُ
وعيب على أبي نواس أيضاً قوله :

وَلَيْسَ كَجَدَّتَيْهِ : أُمُّ مُوسَى إِذَا نُسِبَتْ وَلَا كَالْخِزْرَانِ
وكان هذا مكروها ، لأن شرف الرجال يكون بالرجال .

(١) الطراز ص ٩٣ .

(٢) نفسه ص ٩٤ .

٨ - التَّوْرِيَّةُ : -

وتسمى أيضاً الإيهام والتوجيه والتخيير^(١) ، والتورية أفضل في التسمية وأولى ، لأنك تقول : وَرَيْتُ الْخَبَرَ : أي جعلته ورائي وسترته وأظهرت غيره ، لذلك كان معنى التورية في البديع . هو أن يُذَكَّرَ لفظٌ له معنيان ، معنى قريب ومعنى بعيد ، ويكون المعنى المقصود هو البعيد اعتماداً على قرينة خفية .

وقد قسّمها بعض البلاغيين إلى أربعة أنواع هي : مجردة ، ومرشحة ، ومُبيّنة ، ومهيأة .

ولكننا نكتفي بتقسيم القزويني لها إلى قسمين هما : مجردة ، ومرشحة . أما المجردة ، فهي التي لا يُذكر فيها شيء من لوازم المورى به وهو المعنى القريب ، ولا من لوازم المورى عنه وهو المعنى البعيد .

وخير مثال للتورية المجردة قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٢) فالتورية هنا في كلمة ﴿استوى﴾ والاستواء على معنيين : أحدهما الاستقرار في المكان ، وهو المعنى القريب المورى به غير المقصود ، والثاني هو الاستيلاء والمُلْكُ ، وهو المعنى البعيد المورى عنه ، وهو المقصود لأن الرحمن سبحانه مُنَزَّهٌ عن المعنى الأول . ولم يُذكر من لوازم هذا أو ذاك شيء .

ومن التورية قول أبي بكر رضي الله عنه في الهجرة وقد سئل عن النبي ﷺ مَنْ هَذَا ، فقال : (هادٍ يهديني) ، فالمعنى القريب هنا هو أنه دليلي في السفر يهديني إلى الطريق ، والمعنى البعيد الذي يقصده أبو بكر هو : أن رسول الله ﷺ هاديه إلى الإسلام والحق .

ومن التورية المجردة أيضاً قول النبي عليه الصلاة والسلام في خروجه إلى بدر ، وقد سُئِلَ : مِمَّنْ أَنْتُمْ ؟ فلم يُردَّ أن يعلم السائل ، فقال : (مِنْ ماء) ،

(١) انظر تعريفات التورية عند البلاغيين في كتاب (خزانة الأدب) لابن حجة الحموري ص ٢٣٩ -

٢٤٢ .

(٢) طه - ٥ .

وأراد : أنا مخلوقون من ماء . فَوَرَّى عن هذا المعنى البعيد بمعنى قريب هو قبيلة من قبائل العرب كانت تسمى (ماء) .

فالنوال هنا نوع واحد ، غير أنه فَرَّق بين نوال الأمير الكثير الثمين ونوال الغمام الذي هو قطرة من الماء .

كَأَنَّ نَيْسَانَ أَهْدَى مِنْ مَلَابِسِهِ لِشَهْرٍ كَانُونَ أَنْوَاعاً مِنَ الْحُلَلِ
أَوْ الْغَزَالَةِ مِنْ طُولِ الْمَدَى خَرِفَتْ فَمَا تَفَرَّقُ بَيْنَ الْجَدَى وَالْحَمَلِ

فالتورية هنا في كلمة (الغزالة) وكلمة (الجدى) وكلمة (الحَمَل) والمعنى القريب لهذه الكلمات هو معناها الحقيقي كحيوانات ، أمَّا المعنى البعيد فهو الشمس للغزالة - والغزالة من أسماء الشمس - والجدى والحَمَل بُرْجَانِ من الأبراج الفلكية ، فالمعنى البعيد إذن هو الشمس وبرج الجدي وبرج الحَمَل^(١) .

أما التورية المرشحة فهي التي يقترب بها - قبلها أو بعدها - ما يلائم المورى به ، أي أن لفظ التورية يأتي قبله أو بعده شيء من لوازمه يرشحه للمعنى القريب .

ومن النوع الأول الذي يأتي فيه اللفظ الملائم قبل لفظ التورية ، قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ، وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾^(٢) .

فإن لفظ (بأيدٍ) يحتمل الأيدي الحقيقية وهذا هو المعنى القريب الذي رشح له قبله لفظ (بنيناها) . ويحتمل لفظ (أيدٍ) معنى آخر أبعد وهو القوة وعظمة الخالق ، وهو المعنى المراد ، لأن الله سبحانه مُنَزَّهٌ عن المعنى الأول .

ومن هذا النوع أيضاً قول الشاعر الحماسي يحيى بن منصور :

فَلَمَّا نَأَتْ عَنَّا الْعَيْشِيرَةُ كُلُّهَا أَنْخَنَا ، فَحَالَفَنَا السُّيُوفُ عَلَى الدَّهْرِ
فَمَا أَسْلَمْتَنَا عِنْدَ يَوْمِ كَرِيهَةٍ وَلَا نَحْنُ أَغْضَيْنَا الْجُفُونَ عَلَى وَتْرِ

(١) اعتبر القزويني هذا المثال من أمثلة التورية المرشحة التي قُرِنَ بها ما يلائم المورى به وجاء الملائم هنا بعد التورية وهو الجدى والحَمَل ، (الإيضاح ص ٥٠٠ - ٥٠١) ولكن الجدى والحَمَل هنا ليسا من لوازم الغزالة الوحشية .

(٢) الذاريات - ٤٧ .

فكلمة (الجفون) في البيت الثاني ، سبقتها كلمة (أغضينا) وهي لازمة رشحت (الجفون) للمعنى الحقيقي وهو جفون العين التي يُعتبر الإغضاء من لوازمها ، ولكن الشاعر يقصد المعنى البعيد وهو جفون السيوف ، أي أغمادها التي توضع فيها حال عدم استعمالها . فالشاعر يريد أن يقول (إننا لا نغمد سيوفنا ونحن موتورون) .

ومن هذا النوع أيضاً قول الشاب الظريف^(١) :

تَبَسَّمَ ثَغْرُ اللَّوْزِ عَنْ طِيبِ نَشْرِهِ وَأَقْبَلَ فِي حُسْنٍ يَجِلُّ عَنْ الْوَصْفِ
هَلُمُّوا إِلَيْهِ بَيْنَ قَصْفٍ وَلَذَّةٍ فَإِنَّ غُصُونِ الزُّهْرِ تَصْلُحُ لِلْقَصْفِ

فإن كلمة (القصف) في آخر البيت الثاني تحتل معنيين ، معنى قريب وهو الكسر وقد سبقه ما يناسب هذا المعنى وهو (غصون الزهر) .

ومعنى بعيد للقصف وهو اللعب واللهو ، وذلك هو المعنى الذي أراده الشاعر .

وأما النوع الثاني من التورية المرشحة ، وهو أن يتأخر فيه اللفظ المرشح الملائم للفظ التورية فيأتي بعده . فإن من أمثله قول الشاعر :

مُذْ هُمْتُ مِنْ وَجْدِي فِي خَالِهَا وَلَمْ أَصِلْ مِنْهُ إِلَى اللَّثْمِ
قَالَتْ : قِفُوا وَاسْتَمِعُوا مَا جَرَى خَالِي قَدْ هَامَ بِهِ عَمِّي^(٢)

فكلمة (خالي) في البيت الثاني جاءت بعدها كلمة (عَمِّي) فرشحت الخال للمعنى القريب وهو أخو الأم ، ولكن الشاعر أراد المعنى البعيد للخال وهو النقطة السوداء في الوجه علامة للحسن .

والتورية بوجه عام ، بكونها لوناً من ألواناً علم البديع ، اعتبرها بعض علماء البلاغة أكثر فنون القول دقة ولطفاً ، وليس أنفع منها ولا أعون على تعاطي تأويل

(١) هو شمس الدين بن العفيف التلمساني المتوفي سنة ٦٨٧ هـ .

(٢) الخال : هو آخر الأم ، أو هو نقطة سوداء في الجسد وتكون غالباً في الخد وهو من علامات الحسن

وقد كثر ذكر الخال في الشعر العربي علامة للحسن .

المشتبهات من كلام الله وكلام نبيه ﷺ وكلام الصحابة بما مر من أمثلة لذلك .
 وقيل إن أول من كشف غطاء التورية وأضاءها هو أبو الطيب المتنبي بقوله :
 بِرَغْمِ شَيْبِ فَارِقِ السَّيْفِ كَفُّهُ وَكَانَا عَلَى الْعِلَّاتِ يَصْطَـطِـجَانِ
 كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لِسَيْفِهِ رَفِيقُكَ قَيْسِي وَأَنْتَ يَمَانِي
 أَرَادَ أَنْ كَفَّ (شَيْبِ) وَسَيْفَهُ لَا يَجْتَمِعَانِ ، لِأَنَّ شَيْبَا هَذَا كَانَ قَيْسِيَا ،
 وَالسَّيْفُ الْجَدِيدُ يُوصَفُ بِأَنَّهُ يَمَانِي نِسْبَةً إِلَى الْيَمَنِ وَمَعْرُوفٌ مَا كَانَ بَيْنَ قَيْسٍ وَيَمَنِ
 مِنْ تَنَافُرٍ وَخُصُومَةٍ .

وكانت التورية تقع عند القدماء دون قصد أو تعمد ، ولكن المتأخرين أول
 من تنبهوا إليها وتعمقوا فيها وأنزلوها من البديع أرفع المنازل فشاعت وذاعت في
 أدب المتأخرين وشعراء القرن السادس والسابع والثامن للهجرة ، وقد تأثر كثيرون
 من شعراء مصر بما هياه القاضي الفاضل (المتوفي سنة ٥٩٦) لهم من استعمال
 التورية في نثره ونظمه ، فاحتذاه وزاد عليه كثير ممن أتوا بعده من شعراء مصر كابن
 سناء الملك ، والسراج ، والجزار ، والوراق والحماس وابن دانيال ،
 ومحي الدين بن عبد الظاهر ، وابن نباتة ، والصَّفْدي وغيرهم . وفي الشام أمثال
 شرف الدين الأنصاري ومجير الدين ابن تميم ، وبدر الدين يوسف الذهبي ،
 ومحي الدين الحموي وعلاء الدين الكندي وغيرهم .

وبلغ من شدة اهتمام ابن حجة الحموي بالتورية أنه خصص لها ولشعرائها
 ما يقرب من ربع كتابه (خزانة الأدب) ، وأنه كان ينوي إفراد كتاب خاص بالتورية
 والاستخدام يسميه (كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام)^(١) .

ومن لطيف التورية قول الشيخ عز الدين الموصلي :
 لَحَظْتُ مِنْ وَجْنَتِهَا شَامَةً فَاِبْتَسَمْتُ تَعَجَبُ مِنْ حَالِي
 قَالَتْ قِفُوا واسْتَمِعُوا مَا جَرَى قَدْ هَامَ عَمِّي الشَّيْخُ مِنْ حَالِي
 وقول سراج الدين الوراق :

(١) خزانة الأدب ص ٢٧٧ .

لِقَاءِ الْمَوْتِ عِنْدَهُمُ الْأَدِيبُ
وَلَوْ وَافَى بِهِ لَهُمْ حَبِيبٌ^(١)

وَرٍ وَلَا قُصُورَ بِهَا يَعُوقُ
حُرٌّ وَمَعْنَاهَا رَقِيقٌ

إِذَا بَدَا كَيْفَ أَسْلُو
وَكُلَّمَا مَرَّ يَحْلُو

أَبْلَيْتُهُ صَدًّا وَهَجَرًا
فَرَدَدْتُهُ فِي الْحَالِ نَهْرًا

فَلَأَجَلَ ذَا يَجْلُو الصَّدى

حَفَاطًا وَأَهْجُرُ الْأَدَابَا
وَبِالشَّعْرِ كُنْتُ أَرْجُو الْكِلاَبَا

كَ قَدْ عَلَا عِنْدِي وَعَزَا
أَمَّا رَأَيْتَ الصَّبْرَ عَزَا

دَعُونِي فَلَنِّي أَكُلُ الْخُبْزَ بِالْجُبْنِ

بَيْنَ الرِّيَاضِ السُّنْدُسِيَّةِ

أَصُونُ أُدَيْمَ وَجْهِي عَنْ أَنْاسٍ
وَرَبُّ الشَّعْرِ عِنْدَهُمْ بَغِيضٌ

وقول نصير الدين الحمّامي :

أَبْيَاتُ شِعْرِكَ كَالْقَصْرِ
وَمِنْ الْعَجَائِبِ لَفْظُهَا

وقول بدر الدين الذهبي :

يَا عَاذِلِي فِيهِ قُلْ لِي
يَمُرُّ بِي فِي كُلِّ وَقْتٍ

وقوله أيضاً :

رِفْقًا بِخَلِّ نَاصِحٍ
وَأَفَاكُ سَائِلُ دَمْعِهِ

وقول ابن نباتة المصري :

وَالنَّهْرُ يُشْبِهُ مِبْرَدًا

ويقول أبو الحسين الجزار :

كَيْفَ لَا أَشْكُرُ الْجَزَارَةَ مَا عَشْتُ
وَبِهَا صَارَتِ الْكِلاَبُ تُرَجِّجُنِي

ويقول صلاح الدين الصفدي :

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَإِنَّ قَدَرَ
مَاتَ السُّلُو، تَعِيشُ أَنْتَ

ويقول ابن النقيب :

أَقُولُ وَقَدْ شُنُوا إِلَى الْحَرْبِ غَارَةً

ويقول الشاب الظريف :

قَامَتْ حُرُوبُ الدَّهْرِ مَا

(١) بغيض : شاعر جاهلي ، وحبيب : هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي .

وَأَتَتْ بِأَجْمَعِهَا لِتَغْ زُورَ رَوْضَةَ الْوَرْدِ الْجَنِيَّةِ
لَكُنْهَا أَنْكَسَرَتْ لِأَنَّ الْوَرْدَ شَوْكَتُهُ قَوِيَّةٌ^(١)

٩ - المبالغة :

وهي الزيادة في الوصف بدرجات متفاوتة ، تبدأ من درجة المعقول الممكن حتى درجة اللامعقول المستحيل . لذلك اختلف الناس فيها ما بين مُسْتَحْسِنٍ ومُسْتَهْجَنٍ ، ومنهم من قسمها درجات تبدأ بالتبليغ ثم الإغراق ثم الغلو وأضافوا إلى ذلك ما عرف بالإيغال . واعتبر المتأخرون كل درجة من درجات المبالغة فناً بديعاً مستقلاً :

والمبالغة عند ابن المعتز هي (الإفراط في الصفة) وهذا الإفراط إما مقبول وإما مردول لخروجه عن الحد المقبول ، ويعتبر ابن المعتز أول من تناول هذا الفن البديعي بالتعريف في كتابه (البديع)^(٢) وسماه الإفراط في الصفة ، أما أول من أعطى هذا النوع اسم (المبالغة) فهو قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر)^(٣) حين تحدث عن الإفراط في الصفة عند ابن المعتز واعتبرها من نعوت المعاني . ثم جاء بعده أبو هلال العسكري فقال : (المبالغة أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته ، وأبعد نهاياته ، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازلها ، وأقرب مراتبه)^(٤) ثم يذكر نوعاً آخر من المبالغة فيقول (ومن المبالغة نوع آخر ، وهو أن يذكر المتكلم حالاً لو وقف عليها أجزأته في غرضه منها ، فيجاوز ذلك حتى يزيد في المعنى زيادة تؤكد ، ويلحق به لاحقة تؤيده)^(٥) .

ثم يأتي ابن رشيق القيرواني ، فيشير في عمده إلى تعدد ضروب المبالغة ، ويعرض لآراء بعض حذاق النقد في المبالغة ، يقول : (وهي ضروب كثيرة . والناس فيها مختلفون : منهم من يؤثرها ، ويقول بتفضيلها ، ويراهم الغاية

(١) الورد : اسم من أسماء الأسد . والشوكة : السلاح .

(٢) ص ٥٨ - ٦٦ .

(٣) ص ١٠١ - ١٠٣ .

(٤) كتاب الصناعتين ص ٣٦٥ .

(٥) السابق ص ٣٦٦ .

القصوى في الجودة ، وذلك مشهور من مذهب نابغة بني ذبيان ، وهو القائل :
أشعر الناس من استُجيدَ كذبه وضُحِكَ من رديئه ، هكذا أعرفه) ثم يقول : (. . .
ومنهم من يعيها وينكرها ، ويراها عيباً وهجنة في الكلام) .

ثم يعرض ابن رشيقي رأى بعض حذاق النقد فيقول : (. . . قال بعض
الحذاق بنقد الشعر : المبالغة ربما أحالت المعنى ولَبَسَتْهُ على السامع فليست
لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره ، لأنها لا تقع موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما
قاربه ، لأنه ينبغي أن يكون من أهم أغراض الشاعر والمتكلم أيضاً الإبانة
والإفصاح ، وتقريب المعنى على السامع ، فإن العرب إنما فضلت بالبيان
والفصاحة ، وحلاً منطقيها في الصدور ، وقيلته النفوس لأساليب حسنة ، وإشارات
لطيفة ، تكسبه بياناً وتصوره في القلوب تصويراً ، ولو كان الشعر هو المبالغة
لكانت الحاضرة والمحدثون أشعر من القدماء ، قد رأيناهم احتالوا للكلام حتى
قربوه من فهم السامع بالاستعارات والمجازات التي استعملوها ، وبالتشكك في
الشبهين)^(١) .

ثم يضرب مثلاً لذلك بقول ذي الرمة :
فَيَا ظِيَّةَ الْوَعَسَاءِ بَيْنَ جُلَاجِلٍ وَيَيْنَ النَّقَا آ أَنْتِ أَمْ أَمْ سَالِمٍ
فلو أنه قال : (أَنْتِ أَمْ سَالِمٍ) على نفي الشك ، بل لو قال (أنا أحسن من
الظبية) لَمَا حَلَّ من القلوب محل التشكك .

وكما قال جرير :
فَإِنَّكَ لَوِ رَأَيْتَ عَبِيدَ تَيْمٍ وَتَيْمًا قُلْتَ : أَيُّهُمْ الْعَبِيدُ
فلو أنه قال : (عبيدهم) أو (خير منهم) لما ظُنَّ به الصدق ، فاحتال في
تقريب المشابهة ، لأن في قربها لطافة تقع في القلوب ، وتدعو إلى التصديق .

وكذلك قول أبي النجم يصف عَرَقَ الخيل :

(١) كتاب العمدة جـ ٢ ص ٥٣ .

كَانَهُ مِنْ عَرَقٍ يُسْرِبُهُ كَكُرْسُفِ النَّدَافِ لَوْلَا بَلَلُهُ^(١)

فانه لو قال (إنه الكُرسُفُ) لم يكن في حسن هذا ، لانه يشهد بتقارب الشبهين إلى أن أوقع في الشك . . . والمبالغة في صناعة الشعر كالاستراحة من الشاعر إذا أعياه إيراد معنى حسن بالغ فيشغل الأسماع بما هو محال ، ويهول مع ذلك على السامعين ، وإنما يقصدها من ليس بمتمكن من محاسن الكلام^(٢) .

والقزويني في تعريفه للمبالغة يقول^(٣) :

(والمبالغة : أن يُدَّعى لوصفٍ بلوغه في الشدة أو الضعف حدًا مستحيلًا أو مُسْتَبْعَدًا ، لِثَلَا يُظَنَّ أنه غير متناهٍ في الشدة أو الضعف . وتنحصر (المبالغة) في التبليغ ، والإغراق ، والغلو ، لأن المدَّعي للوصف من الشدة أو الضعف إما أن يكون ممكنًا في نفسه ، أولاً : الثاني الغلو ، والأول إما أن يكون ممكنًا في العادة أيضاً ، أولاً : الأول التبليغ ، والثاني الإغراق^(٤))

وأما أنواع المبالغة فهي : -

أ - التبليغ : -

وهو أول درجات المبالغة ، وهو عند السكاكي أن يكون الوصف المدَّعى ممكنًا عقلاً وعادة ، أي أنه يقبله العقل ، ويمكن حدوثه في الواقع ، وذلك كقول امرئ القيس واصفاً فرسه :

فَعَادَى عِدَاءَ بَيْنِ ثَوْرٍ وَنَعَجَةٍ دِرَاكًا فَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغَسِّلِ^(٥)
يصف امرؤ القيس فرسه بالقوة إذ استطاع في جولة واحدة أن يدرك ثوراً

(١) الكُرسُفُ : القطن وهو الكُرسُوفُ أيضاً ، وواحدته كُرسُفُه . والنَدَافُ : هو الذي يضرب القطن بالندف .

(٢) انظر كتاب العملة ج ٢ ص ٥٤ .

(٣) الإيضاح ص ٥١٤ .

(٤) وهذا رأى السكاكي أيضاً .

عاذى بين الصيدين : صرع أحدهما إثر الآخر في طلق واحد ، نعجة : بقرة وحشية . دراكاً : متتابعاً . لم ينضح : لم يرشح .

ونعجة ويقتل كلا منهما بعد الآخر دون أن يبتل بالعرق وذلك لمهارة الفرس وسلامته .

فالمبالغة هنا أو (التبليغ) أمر ممكن عقلاً وعادة .

ومن ذلك أيضاً قول أبي الطيب المتنبي في وصف فرسه :
وَأَصْرَعُ أَيُّ الْوَحْشِ قَفَّيْتَهُ بِهِ وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أُرْكَبُ
معنى بيت المتنبي هو تقريباً معنى بيت امرئ القيس ، إذ يقول المتنبي :
إنني أصرع أي وحش بفرسي حين أجعله يقفوه أي يتبعه ، وبعد جولة الصيد أنزل
من فوق الفرس وهو غير مرهق بل يكون حاله بعد نزولي كحالته حين ركبته . وهذا
أيضاً ممكن عقلاً وعادة .

ب - الإغراق :-

وهو الدرجة الثانية من المبالغة بعد التبليغ ، وقد عرّفه السكاكي ومن نحا
نحوه ، بأنه ممكن عقلاً وغير ممكن عادة .

وذلك كقول عمرو بن الأهتم التغلبي :
وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا وَنُتْبِعُهُ الْكَرَامَةَ حَيْثُ مَا لَا
فالشاعر يفخر بأن قومه يكرمون جاره طول إقامته معهم في جوارهم ، وإن
إكرامهم للجار لا ينقطع حتى بعد أن يميل عنهم ويفارقهم إلى أي مكان آخر .

فهذا الأمر ممكن عقلاً ، أي لا يستحيل عقلاً ، ولكنه في العادة لا يحدث
أن يلاحق قوم جارهم بعطاياهم أينما حل وحيثما اتجه . ولكن مقام الفخر هنا
جعل الشاعر يُغرق في المبالغة ما أمكن ذلك ليكون كرمه أظهر وأعرف ، أو كما
قال ابن رشيق عن صاحب هذا البيت بأنه (تَقَصَّى بما يمكن أن يقدر عليه فتعاطاه
ووصف به قومه)^(١) .

ج - الغلو :-

وهو امتناع إمكان حدوث الوصف المُدعى عقلاً وعادة وذلك كقول أبي

(١) العملة ج ٢ ص ٥٥ .

نواس في المدح :

وَأَخْفَتْ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى أَنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ (١)
فالغلو هنا في أنه أسند الخوف إلى النطف التي لم تخلق بعد ، وهذا أمر لا
يمكن حدوثه في العادة ، ولا يمكن للعقل أن يسلم به ، فالوصف هنا يمتنع إمكانه
عقلاً وعادة .

المقبول من الغلو :

جعل بعض البلاغيين شروطاً للغلو المقبول ، ومنهم السكاكي والقزويني ،
يقول القزويني (٢) : (والمقبول منه أصناف : أحدها : ما أدخل عليه ما يقربه إلى
الصحة ، نحول فظة (يكاد) في قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارٌ ﴾ (٣) وأن يضيء الزيت دون أن تمسه نار ، أمر محال عقلاً ، ولكن دخول
(يكاد) ينبيء أن المحال لم يقع ولكن قارب الوقوع .

ومنه قول ابن حمد يس الصِّقْلِي يصف سرعة فرسه :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً عَنْ ظِلِّهِ لَوْ كَانَ يَرْعَبُ فِي فِرَاقٍ رَفِيقٍ (٤)
والنوع الثاني من الغلو المقبول هو ما تضمن نوعاً حسناً من التخيل ، وذلك
كقول أبي الطيب المتنبي يمدح ابن عمار :

أَقْبَلْتُ تَبَسُّمَ وَالْجِيَادِ عَوَاسٍ يَخْبِيَنَّ بِالْحَلَقِ الْمُضَاعَفِ وَالْقَنَا
عَقَدْتُ سَنَابِكُهَا عَلَيْهَا عَثِيرًا لَوْ تَبَتَّغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لَأُمَكَّنَا (٥)

فالشاعر هنا يتخيل أن التراب الكثيف الذي أثارته سنابك الخيل وتجمع فوق
رؤوسها صار أرضاً يمكن السير فوقها . ورغم أن هذا يمتنع حدوثه عقلاً وعادة ،
إلا أنه تخيل حسن ومقبول .

(١) النطف : جمع نطفة وهي ماء الرجل قبل أن يتخلق في الرحم .

(٢) الإيضاح ص ٥١٥ .

(٣) النور - بعض الآية ٣٥ .

(٤) سرعة : مفعول لأجله .

(٥) سنابك الخيل : أطراف خوافرها ومفردها سنبك . عثرا : غبارا . عنقا : سيرا سريعاً .

وقد يجتمع حسن التخيل ، وإدخال ما يقربُ الغلو من الصحة ، وجمع بينهما القاضي الأرجاني في وصف الليل بالطول فقال :

يُخَيِّلُ لِي أَنَّ سُمرَّ الشَّهْبِ فِي الدُّجَى وَشُدَّتْ بِأَهْدَابِي إِلَيْهِنَّ أَجْفَانِي
يقول : يخيل لي من طول الليل أن الشهب مثبتة بالمسامير في الظلام ،
فهي تلازمه ، وأن أجفان عيني قد شُدَّتْ بأهدابها إلى الشهب ، فعزَّ النوم في ذلك
الليل .

أما الصنف الثالث الذي ذكره القزويني للغلو المقبول فهو : (ما أُخْرِجَ
مخرج الهزل والخلاعة كقول الشاعر^(١) :

أَسْكُرُ بِالْأَمْسِ إِنْ عَزَمْتُ عَلَى الشُّرِّ بِ غَدًا إِنْ ذَا مِنْ الْعَجَبِ
ثم يضرب ابن رشيق مثلاً بقول زهير بن أبي سلمى^(٢) :
لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ بِأَحْسَابِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ فَعَدُّوا
فبلغ ما أراد من الإفراط ، وبنى كلامه على صحة . وذلك بأن قعودهم فوق
الشمس امتنع باستخدام (لو) .

وقول أبي صخر :
تَكَادُ يَدَيَّ تَنْدَى إِذَا مَا لَمَسَتْهَا وَيَنْبُتُ فِي أَطْرَافِهَا الْوَرَقُ النَّضْرُ
وما استحسنة الرواة ، ونصَّ عليه العلماء ، قول امرئ القيس يصف
سينانا :

حَمَلْتُ رُدَيْنِيًّا كَأَنَّ شَبَاتَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ
ومن الغلو المقبول لأنه دخلت عليه أداة تقربه من الصحة ، قول المتنبي :
لَوْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَعْمَلَ رَأْيَهُ لَمَّا أَتَى الظُّلُمَاتِ صِرْنَ شُمُوسًا

(١) الإيضاح ص ٥١٦ .

(٢) العملة ص ٦٣ .

(٣) سيأتي ذكر بعض هذه الأبيات .

(٤) العملة ص ٦٤ .

أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازَرَ سَيْفُهُ فِي يَوْمٍ مَعْرَكَةٍ لِأَعْيَا عَيْسَى
أَوْ كَانَ لُجُ الْبَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ مَا انْشَقَّ حَتَّى جَارَ فِيهِ مُوسَى
وقول ابن الفارض في وصف ما وصل إليه من نحول ودقة وذوبان في
تصوفه :

كَأَنِّي هَلَالُ الشَّكِّ لَوْلَا تَأْوِيهِ خَفِيتُ فَلَمْ تُهْدِ الْعُيُونُ لِرُؤْيَيْهِ
أي أنه كاد من شدة نحوله ألا تراه العين ، أو أن العين تبدى تشككها في
وجوده أو عدم وجوده كأنه هلال يوم الشك . ولولا آهاته ما اهتدى إليه أحد .
ويقول أبو العلاء المعري مستخدماً (لولا) أداة تقريب :

يُذِيبُ الرُّعْبَ مِنْهُ كُلَّ غَضَبٍ فَلَوْلَا الْغَمْدُ يُمَسِّكُهُ لَسَالَا^(١)
فذوبان السيف من الرعب أمر ممتنع عقلاً وعادة ، ودخول (لولا) جعله
أمرًا تقريباً .

ويقول نصر الخابز أرزي :
ذُبْتُ مِنَ الشُّوقِ فَلَوْ زُجَّ بِي فِي مُقْلَةِ النَّائِمِ لَمْ يَنْتَبِهْ
ومن الغلو ما يأتي به الشاعر بدون أداة تقريب ، كقول نصر الخابز أرزي في
البيت الثاني بعد البيت السابق ذكره :

وَكَاَنَ لِي فِيمَا مَضَى خَاتَمٌ فَالآنَ لَوْ شِئْتُ تَمْنَطُتُ بِهِ
فالبيت الأول احتوى على أداة التقريب (لو) التي أفادت امتناع وقوع
اللامعقول وهو أن الشاعر من فرط نحوله يكاد لو ألقى به في جفن نائم لما شعر
به ، وهذا محال حيث أن الإنسان يشعر بأبسط ذرة غبار تدخل جفنه . أما البيت
التالي له الذي لم يحتو على أداة تقريب فهو يبالغ أو يغرق في وصف نحول جسمه
حتى أنه يستطيع أن يتخذ من خاتم له نطاقاً .

والغلو غير المقبول هو الذي يخلو من أداة تقربه من الصحة ويكون في
الوقت نفسه ممتنعاً عقلاً وعادة ، وخاصة ما يصل منه إلى حد الكفر ، ومن ذلك

(١) الغضب : السيف ، الغمد : جراب السيف الذي يعمد فيه .

قول ابن هانئ الأندلسي في مطلع قصيدة يمدح بها المعز لدين الله الفاطمي :
 مَا شِئْتَ لَا مَا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
 ومنه قول المتنبي يمدح سيف الدولة :
 تَجَاوَزْتَ مِقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنُّهَى إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمُ
 ١٠ - الإيفال - :

وهو من أنواع المبالغة كما يقول ابن رشيق (إلا أنه في القوافي خاصة لا يعدوها) ثم يقول ابن رشيق : (وحكى الحاتمي عن عبد الله بن جعفر عن محمد بن يزيد المبرد قال : حدثني التَّوْزِي قال : قلت للأصمعي : مَنْ أشعر الناس ؟ قال : الذي يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيراً ، أو يأتي إلى المعنى الكبير فيجعله خسيساً ، أو ينقضي كلامه قبل القافية ، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى ، قال : قلت : نحو من ؟ قال : نحو الأعشى إذ يقول^(١) :
 كَنَاطِحِ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيُوْهِنَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعِلُ
 فقد تم الكلام عند قول الشاعر : (وأوهى قرنه) فلما احتاج إلى القافية قال (الوعل) .

ومنه قول ذي الرمة :
 قَفِ الْعَيْسَ فِي أَطْلَالِ مَيَّةٍ وَأَسْأَلِ رُسُومًا كَأَخْلَاقِ الرِّدَاءِ الْمُسْلَسِلِ^(٢)
 أَظُنُّ الَّذِي يُجِدِّي عَلَيْكَ سُؤَالَهَا دُمُوعًا كَتَبِيدِ الْجَمَانِ الْمَفْصَّلِ^(٣)
 ففي البيت الأول تم كلامه عند قوله (كأخلاق الرداء) ثم احتاج إلى القافية فقال (المسلسل) ، وكذلك في البيت الثاني تم كلامه عند قوله : (كتبديد الجمان) ثم احتاج إلى القافية فقال : (المفصل) فزاد شيئاً بذلك .
 يقول ابن رشيق : (وليس بين الناس اختلاف أن امرأ القيس أول من ابتكر .

(١) العملة جـ ص ٥٧ .

(٢) أخلاق : جمع خلق وهو الثوب البالي . المسلسل : المنزق المهلهل .

(٣) الجمان : الفضة . الفصل : العقد الذي تكون فيه خزرة بين كل حبتين من حباته الفضية .

هذا المعنى بقوله^(١) :

إِذَا مَا جَرَى شَأْوَيْنِ وَابْتَلَّ عِطْفُهُ تَقُولُ هَزِيزَ الرِّيحِ مَرَّتْ بِأَثَابِ
فقد بالغ الشاعر في وصف فرسه حين قال عنه إنه إذا جرى شوطين وتبلل جانبه بالعرق ، سمعت له صوتاً يشبه صوت الريح عند مروره بشجر الأثاب والشاعر أتم ما يراه من معنى في قوله : (مَرَّتْ) ثم يتوغل الشاعر أو يغالى بذكر كلمة (أثاب) القافية ، والأثاب شجر للريح بين غصونه حفيف عظيم وشدة صوت . . ومثله أيضاً قول امرئ القيس :

كَأَنَّ عَيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلُنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُثَقِّبْ
فقد تم الكلام عند قوله : (الجزع) ولكن الشاعر أراد الإيغال في تشبيه عيون الوحش بالجزع فزاد بعد ذلك قوله : (الذي لم يثقب) لأنه احتاج إلى القافية التي تم الكلام قبل الوصول إليها .

وتابع زهير امرأ القيس حين قال :

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْقَنَا لَمْ يُحْطَمْ
فقد أوغل زهير في التشبيه إيغالا حين شبه ما يتناثر من فتات الأرجوان بحب القنا الذي لم يُحْطَمْ ، لأنه أحمر في ظاهره أبيض في باطنه ، ولا يظهر فيه بياض قط ما لم يُحْطَمْ . فكلام زهير انتهى عند قوله (حَبُّ الْقَنَا) ثم احتاج إلى القافية فقال (لَمْ يُحْطَمْ) .

ثم جاء الأعشى فتابع كلا من امرئ القيس وزهير ، فقال :

غَرَاءُ فَرَعَاءٍ مَضْقُولُ عَوَارِضُهَا تَمْشِي الْهُوَيْنَا كَمَا يَمْشِي الْوَجَى الْوَحْلُ
فقد أوغل الأعشى حين قال (الوحل) وكان الكلام قد تم عندما شبه المرأة في مشيتها الهوينا بالوجى .

ومن الإيغال المحبوب قول مسلم بن الوليد في معنى بيت الأعشى السابق :

إِذَا مَا عَلَتْ مِنَّا ذُؤَابَةُ شَارِبٍ تَمْشَتْ بِهِ مَشَى الْمُقَيَّدِ فِي الْوَحْلِ

(١) العدة حـ ٢ ص ٥٧

وكان هارون الرشيد إذا ما سمع هذا البيت وأعجبه قال : (قاتله الله ، أما كفاه أن جعله مقيداً حتى جعله في حل .

وكذلك كان بيت الخنساء في أخيها صخر من الإيغال الحسن حين تقول :
وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ
فبعد أن وصفته بأنه إمامٌ وهادٍ لأئمة الناس ، وشبهته بالجبل الشامخ ، لم
تكتف بأن أخاها كالجبل وحسب بل إنه كالجبل الذي أوقدت فوق قمته نار ليهتدى
به الضال ويقصد قراه . فالكلام قد تم عند كلمة (عَلِمَ) ثم أضافت (في رأسه
نار) زيادة منها من أجل القافية . والزيادة هنا زادت المعنى قوة وجمالاً .

كذلك من الإيغال الذي استحسسه البلاغيون قول مروان بن أبي حفصة :
هُمُ الْقَوْمُ : إِنْ قَالُوا أَصَابُوا ، وَإِنْ دُعُوا أَجَابُوا ، وَإِنْ أُعْطُوا أَطَابُوا وَأُجْزِلُوا
فالإيغال الحسن هنا قوله : (وأجزلوا) بعد أن قال (وإن أعطوا أطابوا) فلم
يكتف الشاعر بوصفهم أنهم كرماء إذا أعطوا أحداً اختاروا له أطيب ما عندهم ، بل
وصف هذا العطاء الطيب بأنه كثير جزيل .

فالإيغال إذن إن كان يتطلبه المعنى فيزيده قوة وحسناً وجمالاً وتأثيراً كان
إيغالاً جيداً ، ولم يكن زيادة متكلفة من أجل إكمال القافية وحسب .

١١ - التقسيم :

وتقسيم الشيء هو تجزيته . وقد كثرت تعريفات البلاغيين للتقسيم فأبو
هلال العسكري يقول : (التقسيم الصحيح : أن تقسم الكلام قسمة مستوية
تحتوي على جميع أنواعه ، ولا يخرج منها جنس من أجناسه)^(١) .

وقال الخطيب القزويني : (وهو : ذكر متعدد ، ثم إضافة ما لِكُلِّ إليه على
التعيين) ثم يورد القزويني تعريف السكاكي : (وقال السكاكي : هو أن تذكر شيئاً
ذا جزأين أو أكثر ، ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك)^(٢) .

(١) كتاب الصناعتين ص ٣٤١ .

(٢) الإيضاح ص ٥٠٦ .

وفان ابن أبي الإصبع : (التقسيم عبارة عن استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذي هو اخذ فيه)^(١) .

فمن التعريفات السابقة نستطيع أن نفهم هذا النوع من البديع على أنه
 ١ - استيفاء لأنواع القسمة في الكلام ثنائية أو ثلاثية أو رباعية .
 ٢ - أن يضاف إلى كل قسم ما يلائمه ويوافقه ويليق به .
 ومن أمثلة تقسيم المعنى إلى اثنين فقط قول المثلث :
 وَلَا يُقْسِمُ عَلَى ضَمِيمٍ يُرَادُّ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانِ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَيْدُ^(٢)
 فقد حدد الشاعر هنا نوعين فقط يرضيان بالذل ، هما الحمار والويد .

وقول ثابت البناني : (الحمد لله وأستغفر الله) ، ولما سئل : لِمَ خَصَّصَهُمَا ؟
 قال : لأنني بين نعمة وذنب ، فأحمد الله على النعمة ، وأستغفره من الذنوب .

ومن أمثلة تقسيم المعنى وتجزئته إلى ثلاثة قول زهير :
 فَإِنَّ الْحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ يَمِينٌ أَوْ نِفَارٌ أَوْ جَلَاءٌ
 فَذَلِكَ مَقَاطِعُ كُلِّ حَقٍّ ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ لَكُمْ شِفَاءٌ
 وكان عمر رضي الله عنه يتعجب من صحة هذا التقسيم ويقول : (لو
 أدركت زهيرا لوليت القضاء لمعرفته) .

ومنه قول نصيب :
 فَقَالَ فَرِيقُ الْقَوْمِ : لَا ، وَفَرِيقُهُمْ نَعَمْ ، وَفَرِيقُ قَالَ : وَيَحْكُ مَا نَدْرِي
 فالتقسيم هنا ثلاثي : فريق قال : لا وفريق قال : نعم وفريق ثالث قال : لا
 ندري .

ومن التقسيم الثلاثي أيضاً قول عمر بن أبي ربيعة :
 وَهَبَهَا كَشِيءٌ لَمْ يَكُنْ ، أَوْ كَنَازِحٍ بِهِ الدَّارُ ، أَوْ مَنْ عَيَّيْتُهِ الْمَقَابِرُ
 فهو يفترض أن حبيبته الغائبة : إما يعتبرها كشيء لم يكن ، أو كمن رحل

(١) حزانة الأدب ص ٣٦٢ .

(٢) الضيم : النهر والظلم . العير : الحمار .

ونزح به الدار ، أو كمن مات وغاب في القبر .

وقول زهير بن أبي سلمى :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ
أَيُّ أَنِّي أَعْلَمُ مَا حَدَثَ الْيَوْمَ وَمَا حَدَثَ بِالْأَمْسِ وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُ مَا سَوْفَ
يَحْدُثُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . . فَقَدْ جَمَعَ زَهِيرُ بَيْنَ الْأَبْعَادِ الثَّلَاثَةِ لِلزَّمَنِ ، الْمَاضِي
وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ .

وأما أمثلة التقسيم المضاف إلى كل جزء منه ما يلائمه ويوافقه ، فمنها قول
أحدهم :

أَدِيبَانِ فِي بَلَخٍ لَا يَأْكُلَانِ إِذَا صَجَبَا الْمَرْءَ غَيْرَ الْكَبِيدِ
فَهَذَا طَوِيلٌ كَظِلِّ الْقَنَازَةِ وَهَذَا قَصِيرٌ كَظِلِّ الْوَتْدِ
فَقَدْ وَصَفَ الطَّوِيلَ بِأَنَّهُ كَظِلِّ الرَّمْحِ ، وَوَصَفَ الْقَصِيرَ بِأَنَّهُ كَظِلِّ الْوَتْدِ .
ومنه قول المتنبي :

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَازِ وَمَشَايِخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّمُّوا مُرْدُ
يُقَالُ إِذَا لَاقُوا ، خِيفَافٌ إِذَا دُعُوا كَثِيرٌ إِذَا شَدُّوا ، قَلِيلٌ إِذَا عُذُّوا

فَقَدْ أَضَافَ الشَّاعِرُ إِلَى كُلِّ حَالٍ مَا يَلَائِمُهَا فَإِنْ الثَّقَلُ يَلَائِمُ حَالَ مَلَقَاتِهِمْ
لِلْعَدُوِّ ، وَالْخِفَّةُ تَلَائِمُ حَالِهِمْ إِذَا دَعُوا إِلَى الْقِتَالِ ، وَالْكَثْرَةُ تَلَائِمُ حَالِهِمْ إِذَا
اسْتَعَدُّوا وَشَدُّوا لِلْحَرْبِ ، وَالْقَلَّةُ إِذَا مَا قُورِنُوا بَعْدَ عَدُوهِمُ الَّذِي انْتَصَرُوا عَلَيْهِ ،
لَأَنَّ الْإِنْتِصَارَ مَعَ قَلَّةِ الْعَدَدِ دَلِيلُ الشَّجَاعَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْخَيْرَةِ بِالْحَرْبِ .

ومن ذلك أيضاً قول طريح الثقفي :

إِنْ يَسْمَعُوا الْخَيْرَ يُخْفُوهُ وَإِنْ سَمِعُوا شَرًّا أَذَاعُوا ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعُوا كَذَبُوا
فَقَدْ أَضَافَ إِلَيْهِمْ إِخْفَاءَ الْخَيْرِ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ، وَإِذَاعَتَهُ إِنْ كَانَ شَرًّا وَأَضَافَ
إِلَيْهِمُ الْكَذِبَ إِنْ لَمْ يَسْمَعُوا شَيْئًا .

وَيَكُونُ التَّقْسِيمُ مَعْيِيًّا إِذَا لَمْ يَسْتَوْفِ كُلُّ أَقْسَامِ الْمَعْنَى ، أَوْ إِذَا تَدَاخَلَ أَحَدُ
الْقَسْمِينَ فِي الْآخَرِ .

فمثال الأول قول جرير :
صَارَتْ حَنِيفَةً أَثْلَاثاً فُتِلُّهُمْ مِنْ الْعَبِيدِ ، وَتُلْتُ مِنْ مَوَالِينَا
فهذا تقسيم معيب وفاسد ، لأنه لم يذكر من الثلاثة التي أشار إليها سوى
اثنين فقط وهما العبيد والموالي .

ومثال النوع الثاني من التقسيم المعيب قول أمية بن أبي الصلت :
لِلَّهِ نِعْمَتُنَا تَبَارَكَ رَبُّنَا رَبُّ الْأَنَامِ ، وَرَبُّ مَنْ يَتَأَبَّدُ
فالتقسيم هنا متداخل حيث إن (من يتأبد ويتوحش داخل في (الأنام) ومنه
قول جميل بن معمر :

لَوْ كَانَ فِي قَلْبِي كَقَدْرِ قَلَامَةٍ حُبًّا ، وَصَلْتُكَ أَوْ أَتَيْتُكَ رَسَائِلِي
فعيب التقسيم هنا أن الوصل متداخل في مجيء الرسائل منه إليها .

١٢ - الجمع :

وهو أن تجتمع عدة أشياء تحت حكم واحد كقوله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ
زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ . فقد جمع بين المال والبنون وأعطاهما حكماً واحداً هو زينة
الحياة الدنيا .

ومنه قول النبي ﷺ : (مَنْ أَصْبَحَ آمِناً فِي سِرِّهِ ، مُعَافًى فِي بَدَنِهِ ، عِنْدَهُ
قُوَّةٌ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَائِيرِهَا) .

فقد جمع هنا أمان النفس ، ومعافاة البدن ، والحصول على قوت اليوم
تحت حكم واحد وهو حيازة أو امتلاك الدنيا بكل نواحيها .

ومنه قول أبي العتاهية :
إِنَّ الْفَرَاغَ وَالشَّبَابَ وَالْجِدَّةَ مَفْسَدَةٌ لِمَرْءٍ أَيْ مَفْسَدَةٌ
فقد جمع كلاً من الفراغ والشباب والجنة تحت حكم واحد وهو الفساد لما
اجتمعت لديه هذه الأشياء .

١٣ - التفريق :

وهو أن تعمد إلى شيئين من جنس واحد فتوجد بينهما تفريقاً في درجة كل

منهما زيادة أو نقصاناً .

ومنه قول الشاعر :

قَاسُوكِ بِالْغُصْنِ فِي التَّشْنِي قِيَاسَ جَهْلٍ بِلا أَنْتِصَافِ
هَذاكِ غُصْنُ الْخِلَافِ يُدْعَى وَأَنْتِ غُصْنٌ بِلا خِلَافِ

وهنا شيثان من نوع واحد على التشبيه وهما غصن شجر الخلاف وقوام صاحبه المشابه للغصن في مرونته وتشنيه ، ولكنه فرّق بينهما في الصفة ، فالغصن الحقيقي هو غصن شجرة الخلاف ، أما صاحبه فهي غصن بلا خلاف .

ومن التفريق قول الوطواط :

مَا نَوَالُ الْغَمَامِ وَقَتَ رَبِيعٍ كَنَوَالِ الْأَمِيرِ يَوْمَ سَخَاءِ
فَنَوَالِ الْأَمِيرِ بِذَرَّةٍ عَيْنٍ وَنَوَالِ الْغَمَامِ قَطْرَةُ مَاءٍ^(١)

فالنوال هنا نوع واحد ، غير أنه فرّق بين نوال الأمير الكثير الثمين ونوال الغمام الذي هو قطرة من الماء .

١٤ - الجمع مع التفريق :-

وهو أن تجمع شيئين في معنى واحد وتفرق بين جهتي دخولهما ومن ذلك قول الوطواط :

فَوَجْهُكَ كَالنَّارِ فِي ضَوْئِهَا وَقَلْبِي كَالنَّارِ فِي حَرِّهَا
شبه وجه الحبيب وقلب نفسه بالنار ، وفرّق بين وجهي المشابهة فوجه الحبيب كالنار في ضوئها ، وقلبه كالنار في حرها .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾^(٢) .

فالجمع هنا بين الليل والنهار في حكم واحد وهو أن كلا منهما آية أو علامة

(١) البذرة : كيس يحتوي على ألف أو عشرة آلاف أو سبعة آلاف دينار . النوال : العطاء ، أو ما ينال .

(٢) الإسراء - بعض الآية ١٢ .

على القدرة والحكمة ، ولكن فرّق بين الليل والنهار في الحكم نفسه إذ الليل يكون مظلماً ، والنهار يكون مضيئاً .

ومن ذلك أيضاً قول البحتري :
وَلَمَّا التَّقِينَا وَالنَّقَا مَوْعِدَ لَنَا تَعَجَّبَ رَائِي الدَّرَّ مِنَّا وَلَا قِطْهُ
فَمِنْ لَوْلُوءٍ تَجَلُّوهُ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا وَمِنْ لَوْلُوءٍ عِنْدَ الْحَدِيثِ تُسَاقِطُهُ
فالشاعر هنا يجمع بين شيئين في حكم واحد وهو التشبيه باللؤلؤ غير أن هناك اللؤلؤ المرئي وهو أسنان وثنايا صاحبه ، ثم اللؤلؤ الملتقط وهو كلمات صاحبه التي تشبه اللؤلؤ المتساقط من فمها .

١٥ - الجمع مع التقسيم :-

وقد عرّفه القزويني بأنه^(١) (جمع متعدد تحت حكم ثم تقسيمه ، أو تقسيمه ثم جمعه ، فالأول مثل قول المتنبي من قصيدة له يصف فيها موقعة حدثت بين سيف الدولة وجيش الروم ، يقول :
حَتَّى أَقَامَ عَلَى أَرْبَاضٍ خَرَشْنَةَ تَشَقَّى بِهِ الرُّومُ وَالصُّلْبَانُ وَالْبَيْعُ^(٢)
لِلسَّيِّ ما نَكَحُوا ، وَالْقَتْلَ ما وَلَدُوا وَالنَّهْبَ ما جَمَعُوا ، وَالنَّارَ ما زَرَعُوا
ففي البيت الأول يجمع المتنبي بين الروم جميعاً رجالاً ونساء وأولاداً وصلباناً وكنائس تحت حكم واحد وهو الشقاء ، ثم بين أقسام الشقاء وهي سبي النساء ، وقتل الأولاد ، ونهب الأموال والأموال ، وإحراق الزرع ، فكل نوع أتى له بما يوائمه ويلائمه .

ومثال الثاني وهو التقسيم أولاً ثم الجمع ، قول حسان بن ثابت :
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَائِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ إِنَّ الْخَلَائِقَ - فاعْلَمْ - شَرُّهَا الْبِدْعُ
فقد بدأ الشاعر بالتقسيم ثم الجمع ، فالتقسيم في قوله إن هؤلاء القوم إذا

(١) الإيضاح ص ٥٠٧ .

(٢) أرباض خرشنة : ضواحي مدينة خرشنة البيع : جمع بيعة وهي الكنيسة .

حاربوا عدوهم أضروه ، وإن حاولوا نفع أحلافهم نفعوهم ، ثم جمع ما يفعله هؤلاء القوم بأعدائهم وبأشباعهم تحت حكم واحد وهو أن ذلك (سجية فيهم) أي طبع فيهم .

١٦ - الجمع مع التقسيم والتفريق :-

وهذا النوع من البديع يشمل الجمع والتقسيم والتفريق معاً ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ ، لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ، وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ، مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ، عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴾^(١) .

فالجمع هنا في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ فإن قوله ﴿ نفس ﴾ متعدد معنى ، لأن النكرة في سياق النفي تعم ، وأما التفريق ففي قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ، وأما التقسيم ففي قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ... ﴾ إلى آخر الآية .

ومن ذلك النوع أيضاً قول ابن شرف القيرواني :

لِمُخْتَلِفِي الْحَاجَاتِ جَمْعُ بَابِهِ فَهَذَا لَهُ فَنٌ ، وَهَذَا لَهُ فَنٌ
فَلِلْخَامِلِ الْعَلْيَا ، وَلِلْمُعْدِمِ الْغِنَى وَلِلْمُذْنِبِ الْعُتْبَى ، وَلِلْخَائِفِ الْأَمْنُ

فقد جعل الاجتماع باباً حكماً واحداً يجمع بينهم ، وجعل التفريق في قوله : (فهذا له فنٌ وهذا له فن) ، ثم كان التقسيم في البيت الثاني ، فالعلياء للخامل ، والغني للمعدي ، والعتبي للمذنب ، والأمن للخائف ، فأعطى كل واحد منهم ما يناسب حاله ويلائمه .

١٧ - تأكيد المدح بما يشبه الذم :-

وهو من فنون البديع التي اهتدى إليها ابن المعتز غير مسبوق واعتبره من محاسن الكلام ، وبعض البلاغيين يسمي هذا النوع (الاستثناء) .

(١) هود- الايات من ١٠٥ - ١٠٨ .

وينقسم هذا النوع البديعي إلى قسمين أساسيين :
أولهما وهو أفضلهما أن يؤتى بصفة ذم منفية عن الشيء ، يستثنى منها صفة مدح بتقدير دخولها في صفة الذم المستثنى منها .
وذلك كقول النابغة الذبياني :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
فصفة الذم هنا (عيب) منفية بـ (لا) ثم جاءت أداة الاستثناء (غير) لتوهم أن ما بعدها ذم لأنه يخالف المستثنى منه في الحكم فإذا كان المستثنى منه ينفي عنهم العيب فإن المستثنى يثبت صفة للعيب وهي أن سيوفهم بها فلول ولكن إذا نظرنا إلى صفة العيب هذه وجدناها صفة مدح لأن فلول السيوف لا تحدث إلا بكثرة استعمال السيف في الحروب وقراع الجيوش وهذا دليل الشجاعة والإقدام ، كما أن هذا المدح تأكد بأسلوب الاستثناء . إذن تأكد مدح هؤلاء في صورة تشبه الذم . وكان هذا التأكيد كدعوى الشيء ببينة وبرهان ودليل .

ثانيهما كقول النبي ﷺ (أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، بَيِّدَ أُنَى مِنْ قَرِيشِ) .
فهذا المثال من قول النبي ﷺ ، أن أصل الاستثناء فيه متصل ، بمعنى أن السامع يتوهم قبل أن ينطق المتكلم بما بعد أداة الاستثناء أن ما سيأتي بعدها مخالف في الحكم لما قبلها ، فيكون شيء من صفة الذم ثابتاً ، فإذا أتت بعد أداة الاستثناء صفة مدح تأكد المدح لكونه مدحاً على مدح ، فإن النبي عليه الصلاة والسلام حين ذكر أنه أفصح العرب ، ثم جاء بأداة الاستثناء ، يتوهم السامع أن ما يأتي بعدها مخالف في الحكم ، ولكن الذي جاء بعد أداة الاستثناء ليس مخالفاً لأن قبيلة قريش أفصح قبائل العرب .

ومن تأكيد المدح بما يشبه الذم نوع آخر يكون فيه المستثنى تابعاً أو معمولاً لفعل فيه معنى الذم ، وذلك حين يكون الاستثناء مفرغاً . ومن ذلك قوله تعالى :
﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ (١) .

فالفعل الذي يحمل معنى الذم هو (تنقم) والاستثناء هنا مفرغ لحذف

(١) الأعراف - بعض الآية ١٢٦ .

المستثنى منه ، وما بعد أداة الاستثناء لا يحمل معنى العيب والذم رغم تعلقه بفعل يحمل معنى الذم . لذلك كان القول هنا تأكيداً للمدح الذي ما بعده مدح وهو الإيمان بآيات الله .

وليس كل أسلوب استثناء يُعدُّ من هذا النوع البديعي وهو (تأكيد المدح بما يشبه الذم) وإن كان من محسنات الكلام ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ .

فالمعرض هنا هو المبالغة في تحريم الزواج من زوجة الأب ، لأن ما بعد أداة الاستثناء هنا (ما قد سلف) أي ما حدث قبل نزول النهي عنه ، فتحقيقه محال .

فهذا النوع البديعي كما سبق يشتمل على ضربين أساسيين هما استثناء صفة مدح من صفة ذم منفية عن الشيء ، بتقدير دخول صفة المدح في صفة الذم المنفية عن الشيء قبلها .

والضرب الثاني يكون باستثناء صفة مدح من صفة مدح قبلها ، ومثلنا لذلك بالحديث الشريف .

وزيادة في أمثلة الضرب الأول نذكر بعض أمثلة ، منها قول حاتم الطائي :
وما تَشْتَكِي جَارَتِي غَيْرَ أَنَّنِي إِذَا غَابَ عَنْهَا بَعْلُهَا لَا أَزُورُهَا
ومنه قول ابن الرومي :

لَيْسَ لَهُ غَيْبٌ سِوَى أَنَّهُ لَا تَقَعُ الْعَيْنُ عَلَى شِبْهِهِ
وقول ابن هفان :

وَلَا غَيْبٌ فِينَا غَيْرَ أَنَّ سَمَاحَنَا وَقَوْلَ آخِر :

وَلَا خَيْرَ فِي مَعْرُوفِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُ وَقَوْلُ أَبِي هَلَالٍ الْعَسْكَرِيِّ :

وَلَا غَيْبٌ فِيهِ غَيْرَ أَنَّ ذَوِي النَّدَى وَقَوْلُ صَفِيِّ الدِّينِ الْحَلِيِّ :

وَلَا غَيْبٌ فِيهِمْ سِوَى أَنَّ النَّزِيلَ لَهُمْ يَسْلُو غِنَى الْأَهْلِ وَالْأَوْطَانِ وَالْحَشَمِ .

وقول آخر :

وَلَا عَيْبَ فِيهِ لِأَمْرٍ غَيْرِ أَنَّهُ تُعَابُ لَهُ الدُّنْيَا وَلَيْسَ يُعَابُ

وقول ابن نباتة :

وَلَا عَيْبَ فِيهِ سِوَى الْعَزَائِمِ قَصَّرَتْ عَنْهَا الْكَوَاكِبُ وَهِيَ بَعْدُ تُحَلَّقُ
ومن أمثلة الضرب الثاني وهو استثناء صفة مدح من صفة مدح قبل أداة

الاستثناء ، قول النابغة الجعدي :

فَتَى كَمَلَتْ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقَى مِنَ الْمَالِ بِإِقْيَا
فَتَى كَانَ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يُسِيءُ الْأَعَادِيَا
فالمستثنى منه هو (كمال الأخلاق) وهي صفة مدح ، والمستثنى هو
(الجواد الذي يفنى المال) وهو أيضاً مدح .

وفي البيت الثاني صفتان للمدح أيضاً ، الأولى (يسر الصديق) والثانية
(يسىء العدو) .

ومنه قول بعضهم :

أَدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ غَيْرَ أَنِّي وَحَاشَايَ يَوْمًا لَا أَمُنُ عَلَيْهِمْ
فالمدح الذي قبل أداة الاستثناء هو (الدفاع عن الأحساب) والمدح الذي
بعد أداة الاستثناء هو (عدم المنّ عليهم بما يفعل من أجلهم) .

وقول آخر :

أَطْلُبُ الْمَجْدَ دَائِبًا غَيْرَ أَنِّي فِي طِلَابِي لَا تَعْرِفُ الْيَأْسَ نَفْسِي
فما قبل أداة الاستثناء (المداومة على طلب المجد) وهو مدح ، وما بعد
أداة الاستثناء (نفسه لا تعرف اليأس في طلب المجد) وهو أيضاً صفة من صفات
المدح .

١٨ - تأكيد الذم بما يشبه المدح : -

وهذا النوع البديعي عكس النوع السابق كما هو واضح من اسمه ، وهو
نوعان : أحدهما : أن يؤتى بصفة مدح منفية عن الشيء ثم يستثنى منها صفة ذم
بتقدير دخولها في صفة المدح المنفية قبل أداة الاستثناء ، كقولك : (فلان لا خير
فيه إلا أنه يسىء إلى من يحسن إليه) .

فصفة المدح المنفية قبل أداة الاستثناء هي (خير فيه) وصفة الذم التي بعد .
أداة الاستثناء بتقدير دخولها في صفة المدح المنفية ، هي (يسئ إلى من يحسن إليه) .

وثانيهما : استثناء صفة ذم من صفة ذم قبلها مثبتة للشيء ، وذلك كقولك :
(فلان فاسق إلا أنه جاهل) .

فصفة الذم المثبتة للشيء هي (فاسق) وصفة الذم المستثناة هي
(جاهل) . وكان من المتوقع أن يكون ما بعد أداة الاستثناء مدحاً حتى يخالف
المستثنى منه في الحكم ، ولكن تأكيداً للذم جاء المستثنى متصلاً بالمستثنى منه
في حكمه .

١٩ - المذهب الكلامي :-

في هذا النوع البديعي انقسم البلاغيون قسمين رئيسيين من حيث جواز
الاستشهاد عليه بأمثلة من القرآن الكريم أو عدم جواز ذلك .
فالذين تخرجوا من الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم لهذا النوع البديعي
هم أوائل البلاغيين ومنهم ابن المعتز الذي يعدّه أحد الفنون البديعية الخمسة
الأساسية التي بنى عليها (كتاب البديع) ويقول : (هو مذهب سماء عمرو
الجاحظ المذهب الكلامي ، وهذا باب ما أعلم أنني وجدت في القرآن منه شيئاً
وهو ينسب إلى التكلف ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)^(١) .

وممن تابعوا ابن المعتز في رأيه ابن رشيق الذي وصف هذا النوع البلاغي
بأنه (مذهب كلامي فلسفي)^(٢) .

وقبل ابن رشيق ، جاري أبو هلال العسكري في هذا النوع البديعي ابن
المعتز وقال عن المذهب الكلامي : (جعله عبد الله بن المعتز الباب الخامس من
البديع ، وقال : ما أعلم أنني وجدت منه شيئاً في القرآن ، وهو ينسب إلى
التكلف ، فنسبه إلى التكلف وجعله من البديع)^(٣) .

(١) كتاب البديع ص ٥٣ - ٥٧ .

(٢) العمدة ج ٢ ص ٧٦ .

(٣) كتاب الصناعتين ص ٤١٠ .

أما المتأخرون فإن لهم رأياً يخالف ابن المعتز ومن لف لفه من حيث عدم جواز الاستشهاد بآيات من القرآن في هذا النوع البديعي .

ويبدو أن السبب في الاختلاف هو اختلاف مفهوم هذا الفن بين الفريقين ، حيث نجد الخطيب القزويني (٧٣٩ هـ) ومن بعده يضعون تعريفاً لهذا النوع البديعي يجيز الاستشهاد فيه بآيات القرآن ، يقول الخطيب القزويني في تعريف هذا النوع^(١) :

(المذهب الكلامي ، وهو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام ، كقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾^(٢)) ويقصد القزويني (بطريقة أهل الكلام) أن تكون الحجة مستلزمة للمطلوب بعد تسليم المقدمات .

وفي القرن التاسع الهجري نجد ابن حجة الحموي في تعريفه لهذا النوع من البديع^(٣) يقول (وهو في الاصطلاح أن يأتي البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعه عقلية تصح نسبتها إلى علم الكلام ، إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة) .

ثم يرد على ابن المعتز زعمه بأنه لا يعلم ذلك في القرآن ، فيقول ابن حجة : (وليس عدم علمه - أي ابن المعتز - مانعاً علم غيره ، إذ لم يستشهد على هذا المذهب الكلامي بأعظم من شواهد القرآن ، وأصبح الأدلة في شواهد هذا النوع وأبلغها قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ، هذا دليل قاطع على وحدانيته جل جلاله ، وتمام الدليل أن تقول : لكنهما لم تفسدا فليس فيما آله غير الله) .

وقد استشهد الذين عارضوا رأي ابن المعتز وغيره بكثير من آيات القرآن الكريم على هذا النوع البلاغي ، من ذلك قوله تعالى :

(١) الإيضاح ص ٥١٦ .

(٢) الأنبياء - بعض الآية ٢٢ .

(٣) خزانة الأدب ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾^(١) .

بمعنى : (والإعادة أَهْوَنُ عَلَيْهِ من البدء ، والأهْوَنُ من البدء أَدْخَلَ في الإمكان من البدء ، فالإعادة أَدْخَلَ في الإمكان من البدء ، وهو المطلوب)^(٢) .

وقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَفْلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾^(٣) .

أي : القمر آفل ، وربى ليس بآفل ، فالقمر ليس بربرى .

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ .

أي : أنتم تعذبون ، والبنون لا يُعَذَّبُونَ . فلستم إذن بنين له .

ومن الشواهد غير القرآنية في هذا اللون البديعي .

قول النبي ﷺ : (لو تَعْلَمُونَ ما أعلم لَضَحَكْتُمْ قليلا وَلَبَكَيْتُمْ كثيرا) .

وتمام الدليل أن يقال : لكنكم ضحكتكم كثيرا ، وبكىتم قليلا فلم تعلموا ما

أعلم .

ومنه قول النابغة الذبياني يعتذر إلى النعمان بن المنذر :

وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِمَرْءٍ مَطْلَبُ	حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِبَةً
لِمُبْلِغِكَ الْوَأْشِيِّ أَغْشُ وَأَكْذِبُ	لَئِنْ كُنْتُ قَدْ بُلُغْتُ عَنَى خِيَانَةٍ
مِنَ الْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ	وَلَكِنِّي كُنْتُ امْرَأً لِي جَانِبُ
أَحْكَمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَقْرَبُ	مُلُوكُ وَإِخْوَانُ إِذَا مَدَحَتْهُمْ
فَلَمْ تَرَهُمْ فِي مَدْحِهِمْ لَكَ أَذُنُوبَا	كَفَعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اضْطَفَيْتَهُمْ

فالشاعر هنا يعتذر للنعمان ، ويثبت له بطريقة منطقية أنه لم يخطيء في حقه

حين امتدح قوماً غيره أكرموا وقربوا منهم ، فكما أن النعمان لا يغضب ممن

(١) الروم - بعض الآية ٢٧ .

(٢) الإيضاح ص ٥١٦ .

(٣) الأنعام - بعض الآية ٧٦ - أفل : أي غاب واختفى .

يمدحونه ويقربهم منه ، فكَذلك لا يجوز له أن يغضب على النابغة إذا ما مدح قوماً
أكرموا وقربوه منهم وحكموه في أموالهم .

ومنه أيضاً قول الفرزدق :

لِكُلِّ أَمْرٍ نَفْسَانِ : نَفْسُ كَرِيمَةٍ وَأُخْرَى يُعَاصِيهَا الْفَتَى وَطُيْعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسِيكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى إِذَا قُلَّ مِنْ أَحْرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا

ومنه قول أبي نواس :

إِنَّ هَذَا يَرَى - وَلَا رَأَى لِلْأَحْ - مَقٍ - أَنَّى أَعُدُّهُ إِنْسَانًا
ذَاكَ فِي الظَّنِّ عِنْدَهُ وَهُوَ عِنْدِي كَالَّذِي لَمْ يَكُنْ وَإِنْ كَانَ كَانَا

ففي كل من قول الفرزدق وأبي نواس يبدو فيهما أن الشاعر عنده دعوى يريد
إثباتها بدليل مقنع ، كما يصنع علماء الكلام بأن يوردوا الحجج العقلية لإثبات
دعواهم .

٢٠ - الالتفات :

وقد عرّفه ابن المعتز بقوله : (هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى
الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة ، وما يشبه ذلك ، ومن الالتفات :
الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر)^(١) .

وبتعريف ابن المعتز هذا يكون الالتفات عنده يشمل شيئين : أولهما ما
عرف بالالتفات عند المتأخرين ، والثاني نوع من الاعتراض ، وابن المعتز في الشق
الأول من تعريفه للالتفات سبقه إليه أبو عبيدة في كتابه (مجاز القرآن) وإن كان أبو
عبيدة لم يعطه الاسم البديعي الذي سماه به ابن المعتز .

يقول أبو عبيدة في مقدمة (مجاز القرآن) :

(ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناها الشاهد ، قول الله
تعالى : ﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ مجازه : هذا القرآن ، ومن مجاز ما جاءت
مخاطبته مخاطبة الشاهد ، ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب ،

(١) كتاب البديع ص ٥٨ .

قول الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرَّيْنَهُمْ ﴾ . أي بكم .

ومن مجاز ما جاء خبراً عن غائب ، ثم خوطب الشاهد ، قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ، أَوَّلَى لَكَ فَأُولَى ﴾ .

ثم كان المُبرِّد بعد أبي عبيدة ، في السبق إلى إدراك هذا اللون البديعي دون تسميته أيضاً ، وذلك حين يعلق المبرد على بيت الأعشى :
وَأَمْتَعْنِي عَلَى الْعَشَا بِوَلِيدَةٍ فَأَبْتُ بِخَيْرٍ مِنْكَ يَا هَوْدُ حَامِدًا
يقول المبرد^(١) : (فإنه كان يتحدث عنه ثم أقبل عليه يخاطبه ، وترك تلك المخاطبة ، والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد ، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب) ثم ساق أمثلة من القرآن والشعر .

وأما الشق الثاني من تعريف ابن المعتز « للالتفات » فقد سبقه إليه الأصمعي ، قال ابن رشيق^(٢) : (وحكى عن اسحاق الموصلي أنه قال : قال لي الأصمعي : أتعرف التفات جرير؟ قلت : وما هو؟ فأشدني :
أَتَنَسَّى إِذْ تُودُّعُنَا سُلَيْمَى بِعَوْدٍ بِشَامَةٍ؟ سَقَى الْبِشَامَ^(٣)
ثم قال : أما تراه مقبلاً على شعره إذا التفت إلى البشام فدعا له) .

ومن أمثلة الالتفات في الشعر غير ما تقدم قول جرير :
طَرِبَ الْحَمَامُ بِذِي الْأَرَاكِ فَشَاقِي نِي لَا زِلْتُ فِي عِلَلٍ وَأَيْكِ نَاضِرِ
فجرير هنا التفت إلى المخاطبة في الشطر الثاني من البيت وكان في الشطر الأول يخبر عنه .

ومن الالتفات انصراف المتكلم عن معنى إلى معنى آخر ، كقول أبي تمام :

وَأَنْجَدْتُكُمْ مِنْ بَعْدِ إِنْهَامِ دَارِكُمْ فَيَا دَمْعُ أَنْجِدْنِي عَلَى سَاكِنِي نَجِدِ

(١) رغبة الأمل ج ٦ ص ١٢٨ - هَوْدُ ترخيم هَوْدَة وهو اسم الممدوح .

(٢) العمدة ٢ ص ٤٤ .

(٣) البشام : شجر ذو رائحة عطرة ولا ثمر له . والبشامة بن الغدير وابن حزن شاعران .

فالشاعر في شطر بيته الأول يخاطب من كان دارهم في تهامة ثم أصبح في نجد ، ثم يلتفت في الشطر الثاني بعد ذلك إلى معنى آخر حين ينادي الدمع ويطلب منه النجدة والمساعدة على ساكني نجد .

ومنه أيضاً قول المعطل الهذلي :

تَبَيَّنُ صَلَاةُ الْحَرْبِ مِنَّا وَمِنْهُمْ إِذَا مَا التَّقَيْنَا وَالْمُسَالِمُ بَادِنُ^(١)

فقد رجع الشاعر عن المعنى الأول حين قال في آخر البيت :

(والمسالِم بادن) ، والمعنى الأول الذي رجع عنه هو وصف صَلَاة الحرب

وقد أوضح ابن الأثير مفهوم الالتفات حين قال عنه :

(وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا ، وتارة كذا ، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة ، لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة كالانتقالات من خطاب حاضر إلى غائب ، أو من خطاب غائب إلى حاضر ، أو من فعل ماض إلى مستقبل ، أو من مستقبل إلى ماض ، أو غير ذلك)^(٢) .

٢١ - أسلوب الحكيم :-

وقد عرض له الجاحظ^(٣) وسماه (اللغز في الجواب) وأفرد له باباً ومثّل له ، أما المتأخرون فقد أطلقوا عليه (القول بالموجب) ومنهم ابن أبي الإصبع^(٤) ، وابن حجة الحموي^(٥) ، والخطيب القزويني^(٦) وغيرهم .

وأسلوب الحكيم هو تَلَقَّى المخاطب بغير ما يترقبه ، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله ، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد ، إشارة إلى أنه كاد

(١) تبين : تستبين . صلاة الحرب بضم الصاد أي الذين يصلون نار الحرب وهي جمع صالٍ . بادن : بدين ، يريد أن يقول ان المحارب ضامر والمسالِم بادن .

(٢) المثل السائر ص ١٦٧ .

(٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٤٨ و ٢٨٢ .

(٤) تحرير التعبير ٢٧٠ .

(٥) خزنة الأدب ١٤٥ - ١٤٦ .

(٦) الإيضاح ٥٣٥ - ٥٣٤ .

ينبغي له أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى .

ومما أورده الجاحظ من أمثلة لهذا النوع أن رجلاً سأل بلالاً مولياً أبي بكر رحمه الله وقد أقبل من جهة الحلبة : مَنْ سَبَقَ ؟ قال : سبق المُقَرَّبُونَ . قال : أنا أسألك عن الخيل . قال : وأنا أجيبك عن الخير . فترك بلال جواب لفظه إلى خبر هو أنفع له .

ومن أمثلة هذا النوع البديعي أيضاً أنه قيل لتاجر : كم رأس مالك ؟ فقال : إني أمين وثقة الناس بي عظيمة ، ففي هذا المثال كان رد التاجر حكيماً ، ولم يجب بما يترقبه السائل ، لأن السائل يسأل التاجر عن كمية رأس ماله ، فرد عليه التاجر بإجابة سؤال لم يسأله أو كان ينبغي أن يسأله ، إذ بين له أن ثروته كونها بأمانة ودليل ذلك أن ثقة الناس فيه عظيمة .

ومثال آخر : قيل لرجل هَرَمٌ : كم سنك ؟ فقال : إني أنعم بالعافية .

وفي هذا المثال نجد إجابة الشيخ الهرم لم تكن عن السؤال الموجه إليه ، بل عن سؤال لم يوجه إليه ، إشعاراً للسائل بأنه ليس هكذا يجب أن يكون السؤال .

وقد قَسَمَ الخطيبُ القزويني هذا النوع البديعي إلى ضربين :

أحدهما : - (أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم ، فثبت في كلامك تلك الصفة لغير ذلك الشيء ، من غير تَعَرُّضٍ لثبوت ذلك الحكم له أو انتفائه عنه)^(١) .

كقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) .

فإنهم كَنُوا بِالْأَعَزِّ عن فريقهم ، وبِالْأَذَلِّ عن فريق المؤمنين ، وأثبتوا للأعز

(١) الإيضاح ص ٥٣٢ .

(٢) المنافقون - بعض الآية ٨ .

الإخراج فأثبت الله تعالى في الرد عليهم صفة العزة لله ولرسوله وللمؤمنين من غير تعريض لثبوت حكم الإخراج للموصوفين بصفة العزة ، ولا لثفيه عنهم .

وثانيهما : - (حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقة ^(١)) .

كقول ابن حجاج :

قُلْتُ : ثَقُلْتُ إِذْ أَتَيْتُ مِرَاراً قَالَ : ثَقُلْتَ كَاهِلِي بِالْأَيَادِي
قُلْتُ : طَوَّلْتُ ، قَالَ : لَا ، بَلْ تَطَوَّلْتُ وَأَبْرَمْتُ قَالَ : حَبَلٌ وَدَادِي

والبيتان في رواية أخرى :

قَالَ : ثَقُلْتُ إِذْ أَتَيْتُ مِرَاراً قُلْتُ : ثَقُلْتَ كَاهِلِي بِالْأَيَادِي
قَالَ : طَوَّلْتُ ، قُلْتُ : أُولَيْتُ طَوَّلاً قَالَ : أَبْرَمْتُ ، قُلْتُ : حَبَلٌ وَدَادِي

فصاحب الشاعر يقول له : لقد ثَقُلْتُ عليك بكثرة زيارتي ، فيصرفه الشاعر عن رأيه في أدب وظرف وينقل كلمته (ثَقُلْتُ) من معناها إلى معنى آخر ويقول له : إنك ثَقُلْتَ كاهلي بما أغدقت عليّ من نعم . وفي البيت الثاني يقول صاحبه : لقد طَوَّلْتُ في الإقامة عندك ، وأبرمتك أي جعلتك تتبرّم وتضجر ، فيرد عليه الشاعر في أدب وظرف مرة أخرى فينقل كلامه من معناه إلى معنى آخر ، ويقول له : إنك تَطَوَّلْتُ وأنعمت عليّ وجعلت حبل ودادي محكماً قوياً .

ومنه قول الشاعر :

طَلَبْتُ مِنْهُ دِرْهَمًا يَوْمًا فَأُظْهِرَ الْعَجَبُ
وَقَالَ : ذَا مِنْ فِضَّةٍ يُصْنَعُ لَا مِنْ الذَّهَبِ

فقد صرفه عن طلب الدرهم بلطف ورفق ، ولم يجبه عن سؤاله ، بل أجاب عليه بما يخالف مطلبه ، ليشعره أنه ما كان ينبغي له أن يطلب منه الدرهم .

ومنه قول الأرجاني :

غَالَطْتَنِي إِذْ كَسَتْ جِسْمِي الضَّنَا كُسُوَّةً عَرَّتْ مِنَ اللَّحْمِ الْعِظَامَا

(١) الإيضاح ص ٥٣٣ .

ثُمَّ قَالَتْ : أَنْتَ عِنْدِي فِي الْهَوَى مِثْلُ عَيْنِي ، صَدَقْتَ لَكِنْ سَقَامًا
فَقَوْلُهَا (مثل عيني) أرادت به الاعتزاز الشديد ، ولكنه حمله على أنه سقام
ومرض .

ومنه قول شاعر في الرثاء :
وَلَمَّا نَعَى النَّاعِي سَأَلْنَاهُ خَشْيَةً وَلِلْعَيْنِ خَوْفَ الْبَيْنِ تَسْكَابُ أُمُطَارِ
أَجَابَ قَضَى ! قُلْنَا قَضَى حَاجَةَ الْعَلَا فَقَالَ مَضَى ! قُلْنَا بِكُلِّ فَخَارِ
فَقَوْلُهُ (قضى) يريد به (مات) ولكن حمل هذا على قضاء الحاجات وهذا
ما لم يقصده . وقوله (مضى) يريد به (مات) وحمل على أنه مضى بالخير
والفضل ولم يترك منه شيئاً لأحد .

ومنه قول ابن دويدة المغربي من أبيات يخاطب بها رجلاً أودع بعض القضاة
مالاً فادّعى القاضي ضياع هذا المال :
إِنْ قَالَ : ضَاعَتْ فَيَصْدُقُ ، إِنَّهَا ضَاعَتْ ، وَلَكِنْ مِنْكَ يَعْنِي ، لَوْ تَعَى
أَوْ قَالَ : قَدْ وَقَعَتْ ، فَيَصْدُقُ ، إِنَّهَا وَقَعَتْ . وَلَكِنْ مِنْهُ أَحْسَنُ مَوْقِعِ
وقريب من هذا قول شاعر آخر :

وَلِإِخْوَانٍ حَسِبْتُهُمْ دُرُوعًا فَكَأُتُوَهَا ، وَلَكِنْ لِأَعَادِي
وَحِلَّتُهُمْ سِهَامًا صَائِبَاتٍ فَكَأُتُوَهَا ، وَلَكِنْ فِي فُؤَادِي
وَقَالُوا : قَدْ صَفَتْ مِنَّا الْقُلُوبُ لَقَدْ صَدَّقُوا ، وَلَكِنْ مِنْ وِدَادِي

وبعد هذه الأنواع التي ذكرناها بأمثلتها من المحسنات البديعية المعنوية ،
نتنقل لنذكر بعض أنواع المحسنات البديعية اللفظية .

ثانياً : المحسنات اللفظية : -

١ - الجناس : -

ويسمى كذلك : التجنيس والتجانس والمجانسة . ومعناه أن يحدث تجانس
أي تشابه بين كلمتين في النطق ويكون معناهما مختلفاً .
ويعد الجناس من أكثر أنواع البديع تبويهاً وتنوعاً عند علماء البلاغة ، حتى

انهم اختلفوا فيه ، وتداخلت أبوابه عند بعضهم . وفيما يلي نتناول أهم أقسامه في إيجاز :

ينقسم الجنس قسمين رئيسيين هما : الجنس التام ، وشرطه أن تتفق حروف اللفظين في عددها وترتيبها ونوعها وضبطها . وهذا القسم هو أفضل أنواع الجنس والمقدم فيها .

أما الجنس غير التام أو الجنس الناقص فهو الذي يفقد بعض ما يشترط في الجنس التام .

أولاً : الجنس التام :-

وينقسم الجنس التام إلى ثلاثة أقسام : الجنس المماثل والجنس المستوفي وجنس التركيب .

١ - الجنس المماثل :-

وهو أن يكون لفظا الجنس من نوع واحد ، أي أن يكونا اسمين أو فعلين أو حرفين .

فلاسمان كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ، يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾^(١) .

فلاسمان هنا (الساعة) و(ساعة) الاسم الأول بمعنى يوم القيامة والثاني بمعنى ساعة من الزمن في الدنيا .

ومنه قول زياد الأعجم - وقيل : الصَّلَتَانِ العبدِي - يرثي المغيرة ابن المهلب :

فَانْعِ الْمُغِيرَةَ لِلْمُغِيرَةِ إِذْ بَدَتْ شَعْوَاءَ مُشْعَلَةً كَنَبَجِ النَّابِجِ
فالمغيرة الأولى اسم رجل وهو المغيرة بن المهلب ، والمغيرة الثانية ، هي الفرس أي ثانية الخيل التي تُغِير .

(١) الروم - بعض الآية ٥٥ .

ومنه ما أورده سيبويه لذي الرمة^(١) :
 أُنِيخَتْ فَأَلَقَتْ بَلَدَةً فَوْقَ بَلَدَةٍ قَلِيلٍ بِهَا الْأَصْوَاتُ إِلَّا بُغَامُهَا
 فالبلدة الأولى : صدر الناقة ، والبلدة الثانية المكان من الأرض ، الذي
 يطلق عليه بلدة أو بلد .

وأما الجنس المماثل بين فعلين ، فمثاله قول الشاعر :
 يَا إِخْوَتِي مُذْ بَانَ الثُّجُبُ وَجَبَ الْفُؤَادُ وَكَانَ لَا يَجِبُ
 فَارْقُتُكُمْ وَبَقِيَتْ بَعْدُكُمْ وَمَا هَكَذَا كَانَ الَّذِي يَجِبُ
 فكلمة (يجب) في آخر البيت الأول معناها (يخفق ويضطرب) من وجيب
 القلب أي خفقانه . وكلمة (يجب) في آخر البيت الثاني معناها الواجب .

ومنه قول أبي محمد الخازن :
 قَوْمٌ لَوْ أَنَّهُمْ ارْتَاضُوا لَمَا قَرَضُوا أَوْ أَنَّهُمْ شَعَرُوا بِالنَّقْصِ مَا شَعَرُوا
 فكلمة (شعروا) الأولى بمعنى أَحْسَوْا ، والثانية بمعنى قالوا شعراً .
 ومن المماثلة بين حرفين في الجنس قولك : (قد نجح المجتهد وقد
 ينجح الكسول) فإن (قد) الأولى بمعنى مؤكد ، والثانية بمعنى محتمل .

٢ - الجنس المستوفي :-

وهو ما كان بين لفظين مختلفين : أي اسم وفعل أو اسم وحرف أو فعل
 وحرف .

ومن ذلك قول محمد بن عبد الله بن كناسة في رثاء ابنه الذي كان اسمه
 (يحيى) :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ إِلَى رَدِّ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِ سَبِيلُ
 فإن (يحيى) الأولى اسم ، (ويحيا) الثانية فعل .

ومنه قول شمس المعالي قابوس بن وشمكير :
 وَمَنْ يَسْرِ فَوْقَ الْأَرْضِ يَطْلُبُ غَايَةً مِنْ الْمَجْدِ نَسْرَى فَوْقَ جُمُجْمَةِ النَّسْرِ

(١) كتاب سيبويه ج ١ ص ٢٧٠ .

ومنه قول شاعر آخر :

فَدَارِهِمْ مَا دُمْتَ فِي دَارِهِمْ وَأَرْضِهِمْ مَا دُمْتَ فِي أَرْضِهِمْ
فكلمة (دارهم) الأولى فعل أمر والثانية اسم بمعنى (في بيتهم) ، وكذلك
(أرضهم) الأولى فعل بمعنى اعمل على أن ترضيهم ، و(أرضهم) الثانية اسم
وهي الأرض التي لهم .

وأما قول الشاعر :

عَلَا نَجْمُهُ فِي عَالَمِ الشَّعْرِ فَجَاءَ عَلَى أَنَّهُ مَا زَالَ فِي الشَّعْرِ شَادِيَا
فإنه جناس مستوفى بين فعل وحرف فكلمة (عَلَا) الأولى فعل ماضي
بمعنى ارتفع ، و(على) الثانية حرف جر .

وقول الشاعر :

وَلَوْ أَنَّ وَضَلًا عَلَّلُوهُ بِقُرْبِهِ لَمَّا أَنَّ مِنْ حَمَلِ الصَّبَابَةِ وَالْجَوَى
فكلمة (أَنَّ) الأولى حرف توكيد ونصب ، و(أَنَّ) الثانية فعل من الأنين .
٣ - جناس التركيب :-

وهو أن يكون اللفظان أحدهما كلمة واحدة والثاني كلمة مركبة من كلمتين
فيهما حروف الكلمة الواحدة نوعاً وعدداً وترتيباً وضبطاً .

وهذا النوع ثلاثة أقسام : المتشابه والمفروق والمرفق .

أما التشابه فهو أن تتشابه الكلمتان لفظاً وخطاً ، وذلك كقول الشاعر أبي
الفتح البستي :

إِذَا مَلِكٌ لَمْ يَكُنْ ذَاهِبَةً فَدَعُهُ فَدَوْلَتُهُ ذَاهِبَةً
ففي الشطر الأول كلمة (ذاهبة) كلمة مركبة من (ذا) بمعنى صاحب ،
و(هبة) بمعنى عطية . وفي الشطر الثاني كلمة (ذاهبة) كلمة غير مركبة ومعناها
زائلة أي إذا كان هناك ملك غير جواد وغير معطاء فإن دولته زائلة .

ومنه قول الشاعر :

عَارِضَاهُ بِمَا جَنَى عَارِضَاهُ أَوْ دَعَانِي أُمْتُ بِمَا أَوْدَعَانِي

فقوله (أودعاني) الأولى إنما هي (أو) التي للعطف ، ثم (دعاني) فعل أمر بمعنى اتركاني ، وقوله (أودعاني) في آخر البيت ، بمعنى تركنا عندي ودعة ، ويقال في الواحد أودع وفي المثني (أودعا) وفي الجمع (أودعوا) .

أما جناس التركيب المفروق ، فهو تشابه الكلمة المركبة مع المفردة لفظاً لا خطاً . . أي أن الكلمة المركبة لا تكتب ككتابة الكلمة المفردة ، ولكنها تلفظ مثلها . . وذلك كقول عمر بن علي المطوعي : -

أَمِيرٌ كُلُّهُ كَرَمٌ سَعِدْنَا بِأَخِيذِ الْمَجْدِ مِنْهُ وَأَقْتَبَسَهُ
يُحَاكِي النَّيْلَ جَيْنَ يُسَامُ نَيْلًا وَيَحْكِي بِاسِلًا فِي وَقْتِ بَاسِهِ

فنهاية البيت الأول كلمة (واقتباسه) كلمة واحدة ، وفي نهاية البيت الثاني كلمة مركبة من (وقت) و(باسه) بمعنى شدته وبطشه . فالكلمة الأولى كلمة واحدة والثانية مركبة ولا تكتب ككتابة الكلمة ولكنها تلفظ مثلها .

ومن ذلك النوع أيضاً قول الشاعر :
وَإِنْ أَقَرُّ عَلَى رِقٍّ أَنَا مِلَّةٌ أَقَرُّ بِالرَّقِّ كُلِّ الْأَنَامِ لَهُ
فالأولى كلمة (أنامله) أي أطراف أصابعه وهي كلمة واحدة ، والثانية مركبة من (الأنام) أي الخلق ثم (له) .

ومنه قول أبي الفتح البستي :
كُلُّكُمْ قَدْ أَخَذَ الْجَدَّ مَمْ وَلَا جَامَ لَنَا
مَا الَّذِي ضَرَّ مُدِيرَ الْجَامِ لَوْ جَامَلْنَا
فكلمة (جام لنا) في البيت الأول مركبة من جام أي الكأس ، ثم لنا ، أما البيت الثاني فإن (جاملنا) في آخره كلمة واحدة بمعنى أنه يجاملنا .

وقول عمر بن علي المطوعي : -
لَا تَعْرِضَنَّ عَلَى الرُّوَاةِ قَصِيدَةً مَا لَمْ تُبَالِغْ قَبْلُ فِي تَهْذِيبِهَا
فَمَتَى عَرَضْتَ الشُّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ عَدُوهُ مِنْهُ وَسَاوِسًا تَهْذِي بِهَا
فكلمة (تهذيبها) في آخر البيت الأول كلمة واحدة ، وفي آخر البيت الثاني

كلمة مركبة من (تهذي) أي تخرف و(بها) ويختلف خطها عن خط (تهذيها) .
والتجنيس المرفؤ : - هو الذي يتكون من كلمتين إحداها واحدة والثانية
مكونة من لفظ وجزء منه .

وذلك كقول الحريري :
وَلَا تَلَّهُ عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَابْكِهِ بِدَمْعٍ يُحَاكِي الْمُنْزَنَ حَالَ مَصَابِهِ
وَمَثَلُ لَعْنَتِكَ الْجَمَامَ وَوَقَعَهُ وَرَوْعَةً مَلَقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ
فالجناس المرفؤ هنا بين (مصابه) في قافية البيت الأول و(صابه) في قافية
البيت الثاني مع الميم التي تنتهي بها الكلمة السابقة (مطعم) وبهذا نكون قد
انتهينا من أنواع وشواهد الجناس التام .

ثانياً : الجناس غير التام : -

وهو الجناس الذي يحدث بين لفظيه خلاف في أحد الشروط الأربعة
الواجب توافرها في الجناس التام ، وهذه الشروط هي نوع الحروف ، وعددها ،
وضبطها ، وترتيبها .

وينقسم الجناس غير التام إلى أنواع مختلفة حسب كل حالة من الحالات
التي لم يتحقق فيها أحد الشروط الأربعة السابقة .

١ - عندما لا يتحقق بين اللفظين شرط الاتفاق في نوع الحروف فيشترط ألا
يحدث الخلاف في أكثر من حرف واحد .

وهذا ينقسم إلى ضربين من الجناس هما :
أ - الجناس المضارع :

وهو الذي يكون فيه الحرفان المختلفان متقاربين في المخرج ، ويكونان إما
في أول اللفظ كقول الحريري : (بَيْتِي وَبَيْنَ كَيْ لَيْلٍ دَامِسٍ وَطَرِيقُ طَامِسٍ)^(١) .

وأما يكونان في وسط اللفظ . كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ

(١) كَيْ : أي بيتي . دَامِس : أي شديد الإظلام . طَامِس : أي معالمة مطموسة .

عنه ﴿ (١) .

وإما في آخر اللفظ كقول النبي ﷺ : (الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرِ) (٢) .

وكقول ابن هرمة :

وَأَطْعَنُ لِقِرْنِ يَوْمِ الْوَعَى وَأَطْعَمُ فِي الزَّمَنِ الْلاحِقِ

ب - الجنس اللاحق :

وهو الذي يكون فيه الحرفان المختلفان غير متقاربين في المخرج ، ويكونان أيضاً إما في أول اللفظ كقوله تعالى : ﴿ وَيَلْ لَكُلِّ هُمْزَةً لُْمَزَةً ﴾ (٣) .

وكقول بعضهم (رَبِّ وَضِيٍّ غَيْرِ رَضِيٍّ) (٤) ، وقول الحريري : (لَا أُعْطَى زِمَامِي لِمَنْ يَخْفِرُ ذِمَامِي) (٥) .

وإما يكون الحرفان غير المتقاربين في وسط اللفظ ، كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ (٦) .

وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (٧) .

وإما في آخر اللفظ ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ ﴾ (٨) .
وكقول البحتري :

هَلْ لِّمَا فَاتَ مِنْ تَبْلَاقٍ تَلَافٍ أَمْ لِشَاكٍ مِّنَ الصَّبَابَةِ شَافِي

(١) الأنعام - بعض الآية ٢٦ .

(٢) النواصي : جمع ناصية وهي مقدم الرأس .

(٣) الهمزة - آية ١ .

(٤) وَضِيٍّ : وضئ أي مشرق الوجه .

(٥) الزمام : القيادة والمراد به هنا الطاعة تَجُوزُأً يخفر ذمامي : يخون عهدي وينقضه .

(٦) غافر - ٥٧ .

(٧) العاديات - ٧ - ٨ .

(٨) النساء - بعض الآية ٨٣ .

٢ - والجناس الناقص :

يكون باختلاف اللفظين في أعداد الحروف فقط ، ويكون ذلك على ضربين هما :

أ - هو ما كانت الزيادة فيه حرفاً واحداً في أول أحد اللفظين ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاق ﴾ ^(١) فكلمة (مساق) زادت حرفاً واحداً في أولها وهو الميم ، عن كلمة (ساق) .

وإما تكون الزيادة في الوسط . كقولهم : (جَدِّي جَهْدِي) والزيادة هنا حرف الهاء في كلمة جهدي .

وإما تكون الزيادة في آخر اللفظ ، ويسمى هذا النوع (الْمُطَرَّف) كقول أبي تمام :

يَمْدُونَ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِيٍّ
وكقول البحري :

لَيْتَ صَدَفَتْ عَنَّا فَرُبَّتْ أَنْفُسُ صَوَادٍ إِلَى تِلْكَ الْوُجُوهِ الصَّوَادِفِ
وكقول البهاء زهير :

أَشْكُو وَأَشْكُرُ فِعْلُهُ فَأَعْجَبَ لِشَاكٍ مِنْهُ شَاكِرُ
طَرْفِي وَطَرْفُ النُّجْمِ فِي كِ كِلَاهُمَا سَاهٍ وَسَاهِرُ

ب - أن يختلف اللفظان بزيادة أكثر من حرف واحد على آخر أحد اللفظين ، ويسمى هذا النوع (الجناس المُدَّيِل) .

وعلى ذلك يكون (الْمُطَرَّف) بزيادة حرف واحد في آخر أحد اللفظين ويكون (المُدَّيِلُ) بزيادة أكثر من حرف في آخر أحد اللفظين ، فالنوعان يتفقان في الزيادة على آخر أحد اللفظين ويختلفان في عدد الحروف المزادة .

ومن أمثلة (المُدَّيِل) قو الخنساء :

(١) القيامة - ٢٩ - ٣٠ .

إِنَّ الْبُكَاءَ هُوَ الشُّفَا ءُ مِنَ الْجَوَى بَيْنَ الْجَوَانِحِ^(١)
ومنه قول حسان بن ثابت :

وَكُنَّا مَتَى يَغْزُ النَّبِيُّ قَبِيلَهُ نَصِلُ جَانِبَيْهِ بِالْقَنَا وَالْقَنَابِلِ
وقول النابغة الذبياني في الرثاء :

فَيَا لَكَ مِنْ حَزْمٍ وَعَزْمٍ طَوَاهُمَا جَدِيدُ الرَّدَى بَيْنَ الصَّفَا وَالصَّفَائِحِ
٣ - ومن الجناس غير التام ، اختلاف اللفظين في هيات الحروف فقط ،
أي أن يختلف اللفظان في ضبط حروفهما من حيث الحركات والسكنات ،
ويسمى هذا النوع : الجناس المُحَرَّفُ : -

ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُنْذِرِينَ ﴾^(٢) .

ومنه قولهم : (جُبَّةُ الْبَرْدِ جُنَّةُ الْبَرْدِ) ، فالْبَرْد بضم الباء هو الثوب ، والثانية
(الْبَرْد) بفتح الباء هو ضد الْجَرِّ .

ومن الشعر قول ابن الفارض :
هَلَا نَهَاكَ نُهَاكَ عَنْ لَوْمِ امْرِئٍ لَمْ يُلَفَّ غَيْرَ مُنْعَمٍ بِشَقَاءِ
فالكلمتان (نهاك ونهاك) الأولى مفتوحة الأول وهي فعل ، والثانية مضمومة
الأول وهي اسم بمعنى عقلك . فالجناس بينهما غير تام لاختلاف هيئة الحرف
الأول في إحداهما عن الثانية .

والى جانب الاختلاف في الحركة فقط كما سبق ، يقول القزويني^(٣) : وقد
يكون - الاختلاف - في الحركة والسكون كقولهم : (البدعة شَرُّكَ الشَّرِّكَ) وكقول
أبي العلاء :

وَالْحُسْنُ يَظْهَرُ فِي بَيْتَيْنِ رَوْنَقُهُ بَيْتٍ مِنَ الشُّعْرِ أَوْ بَيْتٍ مِنَ الشُّعْرِ

(١) الحوى : مدة الوجد من الحزن أو العشق الخواص : الضلوع .

(٢) الصدقات ، ٧٢ - ٧٢ .

(٣) الإيضاح ص ٥٣٨ .

فاللفظان (الشَّعْر والشَّعَر) الأول منهما ساكن العين والثاني محركها بالفتحة .

وإذا اختلف اللفظان في ترتيب الحروف فقط ، بمعنى أن يتساوى اللفظان في نوع الحروف وعددها ويختلفان في ترتيبها ، فإن هذا النوع يسمى :
جناس القلب : -

وينقسم جناس القلب إلى أربعة أضرب^(١) اثنان منها يكون التقسيم فيهما من حيث ترتيب الحروف بين اللفظين ، واثنان آخران يكون التقسيم فيهما من حيث موقع لفظي الجنس أهماً متواليين أم أحدهما في أول البيت والآخر في آخره . وهذه الأضرب هي :

أ - قلب كُلّ : -

وهو أن تكون أحرف اللفظين عكس حروف اللفظ الآخر في الترتيب .
وذلك كقولهم : (حُسَامُهُ فَتَحٌ لِأُولِيَّاهُ ، حَتَفٌ لِأَعْدَائِهِ)^(٢) فاللفظان (حتف وفتح) إذا قرئ أحدهما من آخره كان هو اللفظ الآخر .

ومنه قول العباس بن الأحنف :

حُسَامُكَ فِيهِ لِأَخْبَابٍ فَتَحٌ وَرُمُحُكَ فِيهِ لِأَعْدَاءٍ حَتَفٌ

ومنه كذلك قول ابن نباته :

قِيلَ كُلُّ الْقُلُوبِ مِنْ رَهَبِ الْحَرْبِ تَضْطَرُّ
قُلْتُ هَذَا تَخْرُصُ قَلْبُ بُهْرَامَ مَا رَهَبُ

فاللفظان (بهرام ومارهب) فيهما قلب كُلّ . أي أن قراءة أحدهما مقلوباً أي من آخره يؤدي إلى اللفظ الآخر نفسه .

ب - قلب بعض : -

وهو اختلاف ترتيب بعض حروف اللفظين . ويختلف عن سابقه (قلب

(١) قسمة القزويني إلى ضربين أساسيين يشملان الأربعة الأضرب (الإيضاح) ٥٤١ .

(٢) حسامة : سيفه . فتح : نصر . لأوليائه : لأنصاره . حتف : هلاك .

الكل) في أنه إذا قرىء أحدهما مقلوباً أي من آخره لا يؤدي إلى صورة اللفظ الآخر .

ومثال (قلب البعض) كما جاء في الخبر (اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا ، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا) فالكلمتان (عورات وروعات) لا يتساوى ترتيبهما إذا قرئت إحداهما من آخرها ، ولكن حدث اختلاف فقط في ترتيب بعض الحروف .

ومنه قول بعضهم : (رَجِمَ اللَّهُ امْرَأً أَمَسَكَ مَا بَيْنَ فَكِّيهِ ، وَأَطْلَقَ مَا بَيْنَ كَفِّيهِ)^(١) .

ومنه قول أبي تمام :
بيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودَ الصَّحَائِفِ فِي مُتَوْنِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ
فالكلمتان (صفائح وصحائف) بينهما جناس غير تام من ضرب (قلب بعض) ومنه قول المتنبي :

مَمْنَعَةٌ مُنْعَمَةٌ رَدَاخُ يُكَلِّفُ لَفْظُهَا الطَّيْرَ الرُّقُوعَا
جـ - قَلْبُ مُجَنِّحٍ :-

وهو أن يقع أحد اللفظين اللذين حدث فيهما القلب في أول البيت ، والآخر في آخر البيت ، وكان اللفظين جناحان للبيت .

ومن هذا الضرب قول الشاب الظريف :
أَسْكَرَنِي بِاللَّفْظِ وَالْمُقْلَةِ الْكَحْلَاءِ وَالْوَجَنَةِ وَالْكَاسِ
سَاقٍ يُرِينِي قَلْبُهُ قَسْوَةً وَكُلُّ سَاقٍ قَلْبُهُ قَاسٍ
فاللفطان هنا (ساقٍ) في أول البيت الثاني و (قاسٍ) في آخره فالجناس هنا من ضرب (قلب مجنح) من حيث موقعهما في الكلام كما أن بين اللفظين أيضاً جناس (قلب كل) لأن كلا من اللفظين إذا قرىء عكساً تساوى مع الآخر في ترتيب حروفه .

د - مُسْتَوٍ :-

وهو أن يكون عكس لفظي الجنس كطردهما ، أي أن قراءتهما من اليمين

(١) ما بين فكّيه : كناية عن اللسان . وما بين كفّيه : كناية عن المال .

إلى اليسار مثل قراءتهما من اليسار إلى اليمين ، وقد كثر هذا النوع في المقامات

ومثال ذلك في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ فِي فَلَكٍ ﴾ و﴿ رَبَّكَ فَكَبَّرَ ﴾ .

ومنه قول الشاعر :

لَيْلٌ أَضَاءَ هِلَالُهُ أَنَّى يُضِيءُ بِكَوْكَبِ

فكل كلمة في البيت يمكن قراءتها من اليمين إلى اليسار وبالعكس .

ومنه قول آخر :

لَبِقُ أَقْبَلَ فِيهِ هَيْفٌ كُلُّ مَا أَمْلِكُ إِنْ غَنَى هَيْبَهُ

فمن الممكن هنا أن نقرأ عكساً وطرداً كلاً من الكلمات (لبِق أَقْبَلَ) و(فيه

هيف) و(كل ما أملك) .

وفيما تَقَدَّمَ من أنواع الجناس غَنَاءٌ ، غير أن استخدام الجناس لكي يكون مقبولاً مؤدياً ما يراد منه ، فلا بد أن (يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق المتكلم نحوه ، وحتى تجده لا تبتغ به بدلاً ، ولا تجد عنه جِوْلاً .

ومن ها هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه (١) .

٢ - رد العجز على الصدر :-

وهذا النوع من المحسنات اللفظية سماه ابن المعتز (رد أعجاز الكلام على صدورها) وهو أحد فنون البديع الخمسة الكبرى عنده .

أما تسميته (رد العجز على الصدر) أو (التصدير) فمن عمل المتأخرين من علماء البلاغة تسهياً وتخفيفاً على المتلقى .

وكما هو واضح من اسم هذا النوع البديعي ، فإنه يتناول موضع لفظين بينهما علاقة خاصة ، أحد اللفظين يكون موقعه في النثر في آخر الفقرة والآخر في أولها ، وفي الشعر يكون أحد اللفظين في آخر البيت واللفظ الثاني يكون إما في صدر المصراع الأول أو في حشوه أو في آخره ، أو في صدر المصراع الثاني .

(١) أسرار البلاغة ص ٧ .

هذا من حيث موقع اللفظين في النثر وفي الشعر . أما من حيث العلاقة بين اللفظين فهي إما أن يكون اللفظان (مكررين) أي متفقين لفظاً ومعنى ، وإما أن يكونا (متجانسين) أي متفقين في اللفظ دون المعنى ، أو يكونا (ملحقين بالمتجانسين) أي يجمعهما الاشتقاق أو شبهه .

ولتفسير ذلك نتناول كل ضرب على حدة حسب تقسيم القزويني^(١) :

أولاً في النثر : -

١ - اللفظان المكرران ، وأحدهما في أول الفقرة والثاني في آخرها ، وذلك كقوله تعالى ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾^(٢) .

٢ - اللفظان المتجانسان ، وهما المتفقان في اللفظ دون المعنى ، كقولهم : (سَائِلُ اللَّيْمِ يَرْجِعُ وَدَمُهُ سَائِلٌ) . فكلمة (سائل) في أول العبارة اسم فاعل من الفعل سأل يسأل أي طلب . و(سائل الثانية من الفعل سال يسيل ، أي : الذي يسأل اللئيم يعود ودمه يسيل .

٣ - اللفظان اللذان يجمعهما الاشتقاق وشبهه . كقوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

٤ - اللفظان اللذان يجمعهما شبه الاشتقاق . كقوله تعالى : ﴿ قَالَ : إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾^(٤) .

ثانياً : في الشعر : -

١ - اللفظان المكرران المتفقان لفظاً ومعنى :
أ - ويقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في صدر المصراع الأول وذلك

(١) الإيضاح ص ٥٤٣ - ٥٤٧ .

(٢) الأحزاب - بعض الآية ٣٧ .

(٣) نوح - بعض الآية ١٠ .

(٤) الشعراء - ١٦٨ .

كقول المغيرة بن عبد الله الملقب بالأفيسر :
سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَلْطِمُ وَجْهَهُ وَلَيْسَ إِلَى دَاعِي النَّدَى بِسَرِيعٍ
وقول الآخر:

تَمَنَّتْ سُلَيْمَى أَنْ أَمُوتَ صَبَابَةً وَأَهْوَنُ شَيْءٍ عِنْدَنَا مَا تَمَدَّ
وقول شاعر آخر:

سُكْرَانٍ : سُكْرُ هَوَى، وَسُكْرُ مُدَامَةٍ أَنَّى يُفِيقُ فَتَى بِهِ سُكْرَانٌ!
ب - ومنه ما يقع أحد اللفظين في آخر البيت ، والثاني في حشو المصراع
الأول ، وذلك كقول الصَّمَّة القشيري :

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمٍ عَرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارٍ
ج - ومنه ما يقع أحد اللفظين في آخر البيت والثاني في آخر المصراع
الأول ، كقول أبي تمام :

وَمَنْ كَانَ بِالْبَيْضِ الْكُوعِبِ مُغْرَمًا فَمَا زِلْتَ بِالْبَيْضِ الْقَوَاضِ مُغْرَمًا
د - ومنه ما يقع أحد اللفظين في آخر البيت والثاني في صدر المصراع
الثاني ، وذلك كقول ذي الرُّمَّة :

وإن لَمْ يَكُنْ إِلَّا مُعَرِّجَ سَاعَةٍ فَلِأَنِّي نَافِعٌ لِي قَلِيلُهَا
٢ - اللفظان المتجانسان : أي المتفقان لفظاً لا معنى :

أ - يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في صدر المصراع الأول ، كقول
القاضي الأرجاني :

دَعَانِي مِنْ مَلَامِكُمْ سَفَاهًا فَدَاعِي الشُّوقِ قَبْلَكُمْ دَعَانِي
فاللفظان (دعاني ودعاني) في أول البيت وآخره اتفقا في اللفظ واختلفا في
المعنى ، إذ (دعاني) الأولى بمعنى اتركاني ، و(دعاني) الثانية بمعنى طلبني .
ب - يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في حشو المصراع الأول .
كقول الثعالبي :

وَإِذَا الْبَلَابِلُ أَفْصَحَتْ بِلُغَاتِهَا فأنفِ الْبَلَابِلِ بِأَحْسَاءِ بِلَابِلِ^(١)

(١) البلابل الأولى : جمع بلبل ، والثانية : جمع بَلْبَال وهو شدة الحزن . وبلابل الثالثة الأخيرة في البيت :
جمع بلبل وهو قناة إبريق الخمر ويقصد ما بداخل الإبريق ، وأنف : أي أَرْخَ وأبعد .

جـ - يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في آخر المصراع الأول : كقول
الحريري :

فَمَشْغُوفٌ بِآيَاتِ الْمَثَانِي وَمَفْتُونٌ بِرَنَاتِ الْمَثَانِي
فكلمة (المثنائي) في آخر المصراع الأول بمعنى القرآن ، و(المثنائي) في
آخر البيت بمعنى الأوتار أو المزامير .

د - اللفظان المتجانسان اللذان يقع أحدهما في آخر البيت والثاني في صدر
المصراع الثاني ، كقول القاضي الأرجاني :
أَمَلْتُهِمْ ثُمَّ تَأَمَّلْتُهُمْ فَلَاخَ لِي أَنْ لَيْسَ فِيهِمْ فَلَاخُ
فكلمة (فلاخ) التي في صدر المصراع الثاني مكونة من الفاء تم الفعل
(لاح) بمعنى بدا وظهر ، وكلمة (فلاخ) في آخر البيت اسم بمعنى نجاح
وفوز .

٣ - اللفظان الملحقان بالمتجانسين للاشتقاق :

أ - يقع أحدهما في آخر البيت والثاني في صدر المصراع الأول ، كقول
البحري :

ضَرَائِبُ أَبْدَعَتْهَا فِي السَّمَاحِ فَلَسْنَا نَرَى لَكَ فِيهَا ضَرِيًّا
فالكلمتان (ضرائب) و(ضريب) الأولى جمع ضريبة وهي السجية ،
والثانية بمعنى نظير أو مثل .

ب - يقع أحدهما في آخر البيت والثاني في حشو المصراع الأول . كقول
امريء القيس :

إِذَا الْمَرءُ لَمْ يَخْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَانٍ
فالكلمتان (يَخْزُنُ) و(خَزَان) الأولى فعل والثانية صيغة مبالغة .

جـ - يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في آخر المصراع الأول . كقول
عبد الله بن محمد بن عينة :

فَدَعِ الْوَعِيدَ ، فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِي أَطْنِي أَجْنَحَةَ الدُّبَابِ يَضِيرُ؟!
الكلمتان (ضائر) و(يضير) بمعنى واحد ، يجمعهما الاشتقاق فالأولى

اسم فاعل والثانية فعل مضارع .

د - يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في أول المصراع الثاني ، كقول أبي تمام :

وَقَدْ كَانَتْ الْبَيْضُ الْقَوَاضِبُ فِي الْوَعَى بَوَاتِرَ فَهِيَ الْآنَ مِنْ بَعْدِهِ بُتْرُ
الكلمتان (بَوَاتِر) و (بُتْر) يرجعان إلى اشتقاق واحد .

٤ - اللفظان الملحقان بالمتجانسين لشبه الاشتقاق :

أ - يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في صدر المصراع الأول كقول الحريري :

وَلَا حَ يَلْحَى عَلَى جَرَى الْعَنَانِ إِلَى مَلْهُىً فَسُحْقاً لَهُ مِنْ لَائِحٍ لَاحٍ
والكلمتان هما (لَاح) الأولى فعل ، و (لَاحِ) الثانية اسم فاعل من لحاه أي أبعدته .

ب - يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في حشو المصراع الأول كقول أبي العلاء :

لَوْ اخْتَصَرْتُمْ مِنَ الْإِحْسَانِ زُرْتُكُمْ وَالْعَذْبُ يُهْجَرُ لِإِفْرَاطٍ فِي الْخَصْرِ
(اختصر) بمعنى أَوْجَزَ أَوْ قَلَّلَ و (الْخَصْر) اسم بمعنى البرد ، يجمعهما شبه الاشتقاق .

ج - يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في آخر المصراع الأول ، كقول الحريري :

وَمُضْطَلِعٍ بَتْلَخِصِرِ الْمَعَانِي وَمُطَّلِعٍ إِلَى تَخْلِيسِ عَانِي
فكلمة (المعاني) جمع معنى ، والثانية (عَانِي) اسم فاعل بمعنى أسير أو متعب والكلمتان يجمعهما شبه الاشتقاق .

د - يقع أحدهما في آخر البيت ، والثاني في صدر المصراع الثاني كقول الشاعر :

لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ الثَّرِيًّا مَكَانَهُ ثَرَاءً ، فَأُضْحَى الْآنَ مَثْوَاهُ فِي الثَّرَى
الكلمتان (ثراء) و (الثرى) الأولى بمعنى الغنى والثروة ، والثانية بمعنى

التراب . وبينهما علاقة شبه الاشتقاق .

٣ - لزوم ما لا يلزم :-

هو ما عَرَفَهُ الخطيب القزويني بقوله^(١) : (وهو أن يجيء قبل حرف الرُّويِّ وما في معناه من الفاصلة ما ليس يلزم في مذهب السجع) وهذا اللون البديعي يكون في النثر وفي الشعر ، وهو في القرآن قليل ومَثَلٌ له القزويني من القرآن بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾^(٣) .

ومن أمثلته في النثر قول بديع الزمان الهمداني في مقامته الجاحظية : (فهلموا إلى كلامه فهو بَعِيدُ الإشارات ، قليلُ الاستعارات ، قريبُ العبارات منقاد لعریان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة مسموعة)^(٤) .

فالكاتب هنا ألزم نفسه بما هو غير لازم في السجع حين استعمل في الفاصلة التاء والألف والراء ، وبعدها التزم الهاء واللام والميم ، ثم بعد ذلك الهاء والعين والواو .

ويأتي في الشعر بالتزام حرف أو أكثر قبل حرف الرُّويِّ ، ومن ذلك قول عبد الله بن الزبير الأسدي :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي	أَبَادِي لَمْ تُمَنَّ وَإِنْ هِيَ جَلَّتْ
فَتَيَّ غَيْرُ مَحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ	وَلَا مُظْهَرُ الشُّكْوَى إِذَا النُّعْلُ زَلَّتْ
رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا	فَكَانَتْ قَدْ ذِي عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

(١) الإيضاح ص ٥٥٣ .

(٢) الأعراف - بعض الآية ٢٠١ والآية ٢٠٢ .

(٣) الضحى - ٩ - ١٠ .

(٤) مقامات بديع الزمان ص ٧٥ .

فالالتزام في الأبيات السابقة حدث في اللام المشددة قبل حرف الرّويّ وهو التاء .

ومنه قول الشاعر :

يَقُولُونَ : فِي الْبُسْتَانِ لِلْعَيْنِ لَذَّةٌ وَفِي الْخَمْرِ وَالْمَاءِ الَّذِي غَيْرُ آسِنِ
إِذَا شِئْتَ أَنْ تَلْقَى الْمَحَاسِنَ كُلَّهَا فَنَفِي وَجْهِ مَنْ تَهْوَى جَمِيعُ الْمَحَاسِنِ

وقد التزم الشاعر هنا النون وقبلها السين والألف .

ولأبي العلاء المعري ديوان كامل من الشعر في هذا النوع البديعي سماه (اللزوميات) ومنه قوله :

أَرَى الدُّنْيَا وَمَا وُصِفَتْ بِبَرٍّ إِذَا أُغْنَتْ فَقِيراً أَرْهَقَتْهُ
إِذَا خُشِيتْ لِشَرٍّ عَجَّلَتْهُ وَإِنْ رُجِيَتْ لِخَيْرٍ عَوَّقَتْهُ
حَيَاةٌ كَالْحُبَالَةِ ذَاتُ مَكْرٍ وَنَفْسُ الْمَرْءِ صَيِّدٌ أَعْلَقَتْهُ
فَلَا يُخْذَعُ بِحِيلَتِهَا أَرِيبٌ وَإِنْ هِيَ سَوَّرَتْهُ وَنَطَقَتْهُ
أَذَاقَتْهُ جَنِيًّا مِنْ جَنَاهَا وَصَدَّتْ فَاهُ عَمَّا دَوَّقَتْهُ

فاللزوم في هذه الأبيات جاء في الهاء والتاء والقاف .

وهذا الالتزام من الشاعر بحرف أو أكثر قبل حرف الرّويّ يجعل مهمته صعبة وبخاصة عندما تطول القصيدة ، وليس الشاعر ملزماً بهذا بل يستطيع عدم الالتزام به ، أي أن يغير وينوع فيما قبل حرف الرّويّ . فمثلاً لو التزم الشاعر بحرف الدال قبل حرف الروى في مثل قوله (تخدم وتقدم وتعدم) فإنه يستطيع عدم الالتزام في مثل (تسلم ، وتنعم وتفهم . . الخ) .

وهذا النوع البديعي سواء في الشعر أم في النثر لا يكون حسناً مقبولاً إلا إذا جاء عفو الخاطر غير متصنع ولا متكلف حتى لا يطلب الشاعر به الإعانة لنفسه .

وممن أعتنوا أنفسهم بالالتزام ما لا يلزم ، الشعراء المتأخرون ، ومنهم من عمد إليه عن قصد إظهاراً لمقدرته ، واستعراضاً لمحصوله اللغوي . ومنهم أبو العلاء المعري .

٤ - السجع : -

السجع في اللغة هو : الكلام المُقَفَّى ، أو موالاة الكلام على رَوِيٍّ واحد ، وجمعه أسجاع وأساجيع ، وسَجَع الرجل كلامه من باب قطع ونفع ، وسَجَّعَهُ وسَجَّعَ فيه بالتشديد - كما يقال : نظمهُ : إذا جعل له فواصل كقوافي الشعر ولم يكن موزوناً^(١) .

واشتقاق السجع من سجع الناقة والحمامة ، وهو ترديد صوتهما على وجه واحد ، وإنما شبه بذلك لتقارب فواصله .

وسبب التسمية يرجع إلى ما في الكلام المسجوع من حلاوة التنعيم ، وجمال الموسيقى ، فأشبه سجع الحمام .

أما السجع في اصطلاح البلغاء فإننا نذكر منه قول المُبرِّد : (السجع من الكلام : أن تأتلف أو اخره على نسق كما تؤلف القوافي)^(٢) وقول الرمانى : (تكلف القافية من غير تأدية الوزن)^(٣) .

وقريب منه تعريف القلقشندي : (هو تقفية مقاطع الكلام من غير وزن)^(٤) وقول الخطيب القزويني وشبيهه به تعريف ابن الأثير : (هو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد ، وهذا معنى قول السكاكي : الأسجاع في النثر كالقوافي في الشعر)^(٥) .

وقد رفض الباقلائي (المتوفي ٤٠٤ هـ) أن يكون في القرآن سجعٌ وردَّ على من أثبتوه في القرآن بقوله : (لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال هو سجع مُعْجَزٌ لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألفه

(١) الصحاح للجوهري - القاموس المحيط مادة (سجع) .

(٢) الكامل - شرح المرصفي - ج ٥ ص ٢٤١ .

(٣) نهاية الإيجاز للرازي ص ٣٤ .

(٤) صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٥) الإيضاح ص ٥٤٧ .

الْكُهَّانُ من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لأن الكهانة تنافي النبوات وليس كذلك الشعر ، وقد روى أن النبي ﷺ قال للذين جاءوا وكلموه في شأن الجنين ، كيف نَدَى من لا شَرِبَ ولا أكل ولا صاح فاستَهَل ، أليس دمه قد يطل ، فقال : أسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟ وفي بعضها ، أسَجَعاً كسجع الكهان . فرأى ذلك مذموماً لم يصح أن يكون في دلالتة ، ثم قال : والذي يقدرونه أنه سجع فهو وَهْم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً ، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى ، ثم قال : إنه لو كان سجعاً لعارضوه لقدرتهم على ذلك ، ولما تحيروا فيه فوصفوه بالسحر ، ثم قال : ولا معنى لقولهم إن ذلك مشتق من ترديد الحمامة صوتها على نسق واحد وروى غير مختلف ، لأن ما جرى هذا المجرى لا يبنى على الاشتقاق وحده ، ولو بنى عليه لكان الشعر مسجعاً لأن رَوِيَّه يتفق ولا يختلف . ثم قال : وأما الأمور التي يستريح إليها الكلام فإنها تختلف ، فربما كان ذلك يسمى قافية وذلك إنما يكون في الشعر ، وربما كان ما ينفصل عنده الكلامان يسمى مقاطع السجع ، وربما سمي ذلك فواصل ، وفواصل القرآن مما هو مختص بها لا شركة بينه وبين سائر الكلام ولا تناسي (١) .

وممن أجازوا السجع في القرآن : أبو هلال العسكري وابن سنان ، والتنوخي ، وابن الأثير يقول (٢) : (فإن قيل : فإذا كان السجع أعلى درجات الكلام على ما ذهب إليه ، فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعاً وليس الأمر كذلك ، بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع . قلت في الجواب : إن أكثر القرآن مسجوع حتى أن السورة لتأتي كلها مسجوعة ، وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك مسلك الإيجاز والاختصار ، فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب) .

وإذا كان ابن الأثير قد اشتط في رأيه هذا ، فإن العلوي صاحب الطراز

(١) راجع إعجاز القرآن من ص ٥٧ - ٦٥ .

(٢) المثل السائر ص ٧٦ .

يعرض للمذهبيين، مذهب المثبتين ومذهب النافين للسجع في القرآن أو مذهب المجيزين ومذهب الكارهين ، ويسوق لكل مذهب أدلته ، ومال هو إلى جواز السجع في القرآن ، وأوضح أنه هو المعول عليه عند علماء البيان^(١) .

وقد استند المجيزون للسجع في القرآن إلى أن السجع يحسن موقعه في الأذن ، وتأثيره في النفس ، وسحره للعقل ، وسهولته في الحفظ .

ولكن من المستحسن أن نسمى ما ورد في القرآن من هذا القبيل فواصل ، ذلك حتى لا يشركه قول آخر في هذا المصطلح الذي اتخذته أصحابه من قوله تعالى : (كتاب فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)^(٢) .

ومن أمثلة السجع في النثر ما وصف به عبد الله بن عباس أبا بكر الصديق رضي الله عنهما ، بقوله : (رحم الله أبا بكر ، كان والله للقرآن تالياً ، وعن المنكر ناهياً ، وبذنبه عارفاً ، ومن الله خائفاً ، وعن الشبهات زاجراً ، وبالمعروف آمراً ، وبالليل قائماً ، وبالنهار صائماً ، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً ، وسادهم زهداً وعفافاً)^(٣) .

ومنه أيضاً خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ : يقول فيها : (وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، ومن بنات اليونان ، الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيقان ، المقصورات في قصور الملوك ذوى التيجان)^(٤) .

أقسام السجع :

ينقسم السجع في الكلام إلى أربعة أضرب هي : المُطَرَّف ، والمُرَّصَع ، والمُتَوَازِي ، والمُشْطَر .

١ - المُطَرَّف :

وهو السجع الذي تتفق فيه الفاصلتان أو الفواصل ، أو القرينتان في

(١) راجع الطراز ص ١٩٣ .

(٢) فصلت: ٤١ .

(٣) جمهرة خطب العرب ج ٢ ص ٨٣ .

(٤) جمهرة خطب العرب ج ٢ ص ٣٠٠ .

الرَّوْيُ ، وتختلف في الوزن ، وذلك كقوله تعالى :

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾^(١) .

ومن السجع ما يأتي في الشعر ، ومثال ذلك قول أبي تمام :
تَجَلَّى بِهِ رُشْدِي ، وَأَثَرَتْ بِهِ يَدِي وَفَاضَ بِهِ ثِمْدِي ، وَأَوْرَى بِهِ زُنْدِي^(٢)

٢ - الترصيع :

وهو أن تقابل كل لفظة من فقرة النثر أو صدر البيت لفظة على وزنها ورويها . وذلك مثل قول الحريري في المقامات : (فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه) .

ومنه قول أبي الفضل الهمداني : (إِنَّ بَعْدَ الْكَدْرِ صَفْوَا ، وَبَعْدَ الْمَطَرِ صَحْوَا) . ومنه قول أبي الفتح البستي : (لِيَكُنْ إِقْدَامُكَ تَوَكُّلاً ، وَإِحْجَامُكَ تَأَمُّلاً) .

ومن أمثله في الشعر قول أبي فراس الحمداني :
وَأَفْعَالُنَا لِلرَّاعِبِينَ كَرَامَةٌ وَأَمْوَالُنَا لِلطَّلْبِينَ نِهَابٌ
وقول ابن نبيه الشاعر :

فَحْرِيقُ جَمْرَةٍ سَيْفِهِ لِلْمُعْتَدِي وَرَحِيقُ خَمْرَةٍ سَيْبِهِ لِلْمُعْتَفِي
فالترصيع وقع هنا في جميع ألفاظ البيت فكلمة (حريق) تقابلها (رحيق)
(جمرة) تقابلها (خمرة) ، و (سيفه) تقابلها (سيبه) و (المعتدى) تقابلها (المعتفى) .

٣ - المتوازي :

وفيه تتفق اللفظة الأخيرة من الفاصلة أو القرينة (أي الفقرة) مع نظيرتها في الوزن والرَّوْيُ (أو القافية) وذلك كقوله تعالى :

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾^(٣) .

(١) نوح - ١٣ .

(٢) تجلَّى به رشدي : أي ما تأملته فيه قد تحقق ، ثمدي : الماء القليل والمقصود به هنا المال القليل .

(٣) الغاشية - ١٣ - ١٤ .

ومنه دعاء النبي ﷺ (اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْرَأُ بِكَ فِي نُحُورِهِمْ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ) .

٤ - المشطور : (أو التشطير)

وهو أن يكون في كل شطر من البيت قافيتان مختلفتان عن قافية الشطر الثاني ، وهذا النوع من الجناس خاص بالشعر .

ومنه قول أبي تمام :

تَذِيرٌ مُعْتَصِمٌ بِاللَّهِ ، مُنْتَقِمٌ لِلَّهِ ، مُرْتَبِعٌ فِي اللَّهِ ، مُرْتَبِعٌ

ففي الشطر الأول نجد القافيتين في (معتصم ومنتقم) وهما مخالفتان للقافية في الشطر الثاني في (مرتبِع ومرتقب) ، فالسجع في الشطر الأول قافيته ميمية ، وفي الثاني قافيته بائية .

شرط حسن السجع : -

١ - أحسن السجع هو الذي تتساوى فيه القرائن (أي الفقرات) كقوله تعالى : ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ، وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾^(٢) .

٢ - أن تطول القرينة (الفقرة) الثانية عن الأولى ، على ألا يمتد طولها كثيراً حتى لا يبعد على السامع وجود القافية ، فيقل تأثير السجع ، وتضيع حلاوته .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾^(٣) فالآية الأولى ثلاث كلمات ، والثانية خمس كلمات وهي أطول من الأولى وطولها لم يبعد بالسامع عن الفاصلة .

٣ - أن تطول في السجع فقرته الثالثة . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ ،

(١) الواقعة - ٢٨ - ٣٠ .

(٢) الضحى - ٩ - ١٠ .

(٣) النجم - ١ - ٢ .

فَعْلُوهُ ، ثم الْجَحِيمَ صَلَّوْهُ ﴿١﴾ ، وكقول أبي الفضل الميكالي : (لهُ الأَمْرُ الْمُطَاعُ ، والشَّرْفُ الْيَفَاعُ ، والعِرْضُ الْمَصُونُ ، والمَالُ الْمُضَاعُ) (٢) .

وقد اجتمعاً في قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٣) .

٤ - ولا ينبغي أن تلي قرينة قرينة أقصر منها كثيراً ، لأن السجع إذا استوفى أمده من القرينة الأولى لطولها ، ثم جاءت الثانية أقصر منها كثيراً ، يكون كالشيء المبتور ، ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ، ويشهد الذوق بذلك ، ويقضى بصحته (٤) .

السجع من حيث الطول والقصر :

قد يجيء السجع قصيراً أو طويلاً أو متوسطاً .

والقصير : الذي تتألف فيه كل فاصلة أو فقرة من أقل الألفاظ هو أحسن السجع وأقربه من السمع ، وهو كذلك أصعب أنواعه . ومثال فواصله قوله تعالى : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ، فَالْعَاصِفَاتِ عُرْفًا ﴾ (٥) ومنه قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (٦) .

والطويل : هو الذي تطول فواصله (أو قرائنه أو فقراته) بأن تتألف كل واحدة منها من عدة ألفاظ قد تصل إلى خمس عشرة لفظة .

ومثال فواصله قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً ، وَلَوْ أَرَأَاهُمْ كَثِيراً لَفُتِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، وَإِذْ يُرِيكَهُمُ إِذْ التَّقِيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً ، وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمراً كَانَ

(١) الحاقة - ٣٠ - ٣١ .

(٢) اليفاع : العالي المرتفع .

(٣) سورة العصر .

(٤) راجع الإيضاح ص ٥٤٨ .

(٥) المُرْسَلَات - ١ - ٢ .

(٦) الْمُدَّثِّر - ١ - ٥ .

مَفْعُولًا ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١﴾ .

أما المتوسط : فكقوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَبٌ ﴾ (٢) .

ومنه قول بديع الزمان الهمذاني من كتاب له إلى ابن فريقون (٣) : (كتابي والبحر وإن لم أره ، فقد سمعتُ خبره ، والليث وإن لم ألقه ، تصورت خَلْقَه ، والمَلِكُ العادل وإن لم أكن لِقِيَّتُه ، فقد لَقِيْنِي صِيَّتُه ، ومن رأى من السيف أثره ، فقد رأى أكثرَه) .

بناء الأسجاع : -

وفواصل السجع أو أعجاز فقراته لا بد أن تكون ساكنة موقوفاً عليها ، إذ الغرض أن يزاوج بينها ، ولا تتحقق الموازنة في كل صورة إلا بالوقوف فلو أن الوقف لم يتحقق في قولهم : (ما أبعد ما فات ، وما أقرب ما هوأت) فإن السجع بالتالي لا يتحقق ، إذ لا بد من إجراء كل من الفاصلتين على ما يقتضيه حكم الإعراب فيفوت الغرض من السجع .

٥ - الموازنة : -

ومن أنواع المحسنات اللفظية (الموازنة) وهي أن تتساوى الفاصلتان أو القرينتان في الوزن دون التقفية ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ، وَزُرَابِيٌّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (٤) .

وإذا كان ما في إحدى القرينتين من الألفاظ ، أو أكثر ما في إحدهما مثل ما يقابله من القرينة الأخرى في الوزن سُمِّيَ ذلك بالمماثلة كقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٥) .

(١) الأنفال - ٤٣ - ٤٤ .

(٢) القمر - ١ - ٢ .

(٣) رسائل البديع ص ٣٥٨ بيروت .

(٤) الغاشية ١٥ - ١٦ . النارق : الوسائد الصغيرة . الزرابي : البسط الفاخرة . المَبْثُوثَةُ : المفروشة .

(٥) الصافات - ١٧ - ١٨ .

ويعرّف ابن الأثير الموازنة موضحاً علاقتها بالسجع في قوله :
(وهذا النوع من الكلام أخو السجع في المعادلة دون المماثلة ، لأن في
السجع اعتدالاً وزيادة على الاعتدال ، هي تماثل أجزاء الفواصل لورودها على
حرف واحد . وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود في السجع ، ولا تماثل في
فواصلها ، فيقال إذن : كل سجع موازنة ، وليس كل موازنة سجعاً ، وعلى هذا
فالسجع أخص من الموازنة)^(١) .

وتكون الموازنة في النثر وفي الشعر ، ومن أمثلة الموازنة في الشعر قول أبي
تمام :

مَهَا الْوَحْشُ إِلَّا أَنْ هَاتَا أَوَانِسُ قَنَا الْخَطُّ ، إِلَّا أَنْ تِلْكَ ذَوَابِلُ
فالموازنة في البيت تَمَّتْ بين كل لفظة وما يقابلها في كل من المصراعين ما
عدا لفظتي (هاتا وتلك) .

ومنها قول أبي تمام أيضاً^(٢) :
فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْعَمًا وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبًا
ومنها قول ربيعة بن ذؤابة :

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَّتْ عُرُوشُهُمْ بَعْتِيَّةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ شِهَابٍ
بَأْسَدِهِمْ بَأْسًا عَلَى أَصْحَابِهِ وَأَعَزَّهُمْ فَقْدًا عَلَى الْأَصْحَابِ

ونكتفي من المحسنات اللفظية بتلك الأنواع الخمسة التي أوجزنا فيها القول
ونستعير قول الخطيب القزويني في ختام الحديث عن المحسنات اللفظية مبيناً
شرط الحسن فيها قائلاً : (وأصل الحسن في جميع ذلك - أعنى القسم اللفظي -
كما قال الشيخ عبد القاهر ، هو أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني فإن المعاني إذا
أُرسلت على سجيته ، وتُركت وما تريد ، طلبت لأنفسها الألفاظ ، ولم تكتس إلا
ما يليق بها ، فإن كان خلاف ذلك كان كما قال أبو الطيب :

(١) المثل السائر ص ١١١ .

(٢) نسه القزويني للبحري - الإيضاح ص ٥٥٢ .

إِذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شَيَاتِهَا وَأَعْضَائِهَا ، فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبٌ^(١)

وقد يقع في كلام بعض المتأخرين ما حَمَلَ صاحبه فرطُ شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع على أن ينسى أنه يتكلم لِيُفْهَمَ ، ويقول لِيُبَيِّنَ ، وَيُخَيِّلَ إليه أنه إذا جمع عدة من أقسام البديع في بيت ، فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء^(٢) .

(١) شياتها : أوضاعها وعلاماتها من الألوان المخالفة للونها الأصلي والضمير للخيل التي يصفها .

(٢) الإيضاح ص ٥٥٤ - ٥٥٥ .

الأيضاح

في علوم البلاغة

للامام الخطيب القزويني

٦٦٦ - ٧٣٩ هـ

المجلد الأول

ترج وتعليق وتنقيح

الدكتور

محمد عبد المنعم صفاجي

الفصل الثاني

مواضع ينبغي
للبلغ
التأنيق فيها
الابتداء

٢٩٧ - ينبغي للمتكلم أن يتأنتق في ثلاثة مواضع من كلامه ، حتى تكون أعذب لفظاً ، وأحسن سبكاً ، وأصح معنى .

٢٩٨ - الأول : الابتداء . لأنه أوّل ما يقرع السمع ، فإن كان كما ذكرنا أقبل السامع على الكلام . فوعى جميعه ، وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورفضه وإن كان في غاية الحسن .

فمن الابتداءات المختارة قول امرئ القيس :

٦٨٦ - قِفَا نَبَكِ مِنْ ذِكْرَتِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ٥ (١)
وقول النابغة :

٦٨٧ - كَلَيْفِي لِيَهْمٌ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ
وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ (٢)
وقول أبي الطيب :

٦٨٨ - أَتَظُنُّنِي مِنْ زَلَّةٍ أَتَعْتَبُ ؟ !
قَلْبِي أَرَقُّ عَلَيْكَ مِمَّا تَحْسَبُ (٣)

(١) عجزه : سقط اللوى بين الدخول فحومل . قفا : طلب
للقوف من رفيقه . اللوى : الرمل المتتوي المعوج . وسقطه : منقطعه ومتناه . الدخول
وحومل : مكانان .

(٢) كليلي : دعيني واتركيني . ناصب : متعب . أقاسيه : أتحمله وأعاني قسوته :
(٣) زلة : هفوة . أتعنب : ألوم .

وقوله :

٦٨٩ - أَرِيْقُكَ ، أُمُّ مَاءِ الْغَمَامَةِ ، أُمُّ خَمْرٍ ؟
بِفِيٍّ بَرُودٌ . وَهُوَ فِي كَبْدِي جَمْرٌ (١)

وقوله :

٦٩٠ - فَرَاقٌ ، وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمٍ
وَأُمٌّ ، وَمَنْ يَمَّتْ خَيْرُ مُبِمِّمٍ (٢)

وقوله :

٦٩١ - أَتْرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعَشَاقِ
تَحْسَبُ الدَّمَاعَ خِلْقَةً فِي الْمَآقِي ؟ (٣)

وقول الآخر :

٦٩٢ - زَمُوا الْجِمَالَ ؛ فَقُلْ لِلْعَاذِلِ الْجَانِي :
لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِِنْ مِدْرَارِ أَجْفَانِي (٤)

٢٩٩ - وَيَنْبَغِي أَنْ يُجْتَنَّبَ فِي الْمَدِيحِ مَا يُتَطَيَّرُ بِهِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَتَفَاءَلُ
بِهِ الْمَدُوحُ أَوْ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ ، كَمَا رُوِيَ أَنَّ ذَا الرُّمَّةِ أَنْشَدَ هِشَامَ بْنَ
عَبْدِ الْمَلِكِ قَصِيدَتَهُ الْبَائِيَّةَ :

(١) بفيٍّ : بفي . برود : بارد ، يقول : ريقك بارد لذيد بفي ، وهو كئار
في كبدي ؛ إذ أنه يهيج حي . وفي الشطر الأول تجاهل العارف ، وتشبيهان ضمانيان

(٢) غير مذمم : ذير . موم ولا معيب . أم : قصد .

(٣) أترأها : أنظنها . تحسب : تظن . خلقة : فطرة وطبيعة . المآقي : مجاري
العيون ، واحده مؤق بهمز العين ، وبتهليلها .

(٤) زموا الجمال : شدوا عليها الرحال . لا عاصم : لا وافي . مدرار أجفاني :
دموعي الغزيرة السيلة .

٦٩٣ - * ما بال عينك منها الماء ينسكب ؟ ! * (١)

فقال هشام : بل عينك .

ويقال : إن ابن مقاتل الضرير أنشد الداعي العلوِي قصيدته التي أولها :

٦٩٤ - * مَوْعِدُ أَحْبَابِكَ بِالْفُرْقَةِ غَدٌ * (٢)

فقال له الداعي : (بَلْ) موعد أحبابك ، ولك المثل السوء .

وروي أيضاً أنه دخل عليه في يوم مِهْرَجَان وأنشد :

٦٩٥ - لا تَقُلْ : بُشْرَى ، ولكن بُشْرِيَان

غُرَّةُ الدَّاعِي ، ويومُ المِهْرَجَان (٣)

فتطير به ، وقال : أعمى يبتدىء بهذا يوم المهرجان ؟ ! وقيل بطَّحَه وتضربه خمسين عصاً ، وقال : إصلاحُ أدبه أبلغ في ثوابه .

وقيل : لما بنى المعتصم بالله قصره بالميدان ، وجلس فيه ؛ أنشده لإسحاق الموصلي :

٦٩٦ - يا دارُ غَيْرِكَ البلي ، وَمَحَاكَ

يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا اللَّدِّي أَبْلَاكَ ؟ (٤)

ترك ما
يتشأم به

(١) بقيته : كأنه من كُلى مَفْرِية سَرِب * ينسكب : ينصب . كلى : اسم جنس ، واحده كلية بضم أوله ، وهي العضو المعروف في حشا الإنسان فوق صلبه . مفرية : مقطعة مشققة . سَرِب : سائل .

(٢) البيت مطلع أرجوزة . ابن مقاتل : هو نصر بن نصر الحلواني . والداعي هو محمد بن زيد الحسني صاحب طبرستان .

(٣) الغرة : بياض في الجبهة ، ومراده الوجه ، جعله غرة كله . المهرجان : عيد فارسي يكون أول الحريف . (٤) البلى : القدم . أبلاك : صيرك بالية .

فتطير المعتصم بهذا الابتداء ، وأمر بهدم القصر .

ومن أراد ذِكْرَ الديار والأطلال في مديح فليقل مثل قول القطامي :
٦٩٧ - * إنا مُحَيُّوكَ فاسلَمْ أَيُّهَا الطَّلَلُ * (١)

أو مثل قول أشجع السلمي :

٦٩٨ - قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ
خَلَعَتْ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الْأَيَّامُ (٢)

٣٠٠ - وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود ، ويُسمَّى بِرَاعَةِ
الاستهلال ، كقول أبي تمام يهنئ المعتصم بالله بفتح عمورية ، وكان
أهل التنجيم زعموا أنها لا تفتح في ذلك الوقت :

أحسن
الابتداءات

٦٩٩ - السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتبِ
في حَدِّهِ الحدُّ بينَ الحدِّ واللَّعِبِ (٣)
بيضُ الصفائحِ ، لا سُودُ الصَّحَائِفِ ، في
مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ والرَّيْبِ

وقول أبي محمد الخازن يهنئ ابن عباد بمولود لبنته :

(١) بقيته : * وإن بليت ، وإن طالت بك الطيل * الطلل : الأثر الشاخص
من آثار الديار . الطيل : آماد الدهر ، واحدا طيلة . والقطامي يعرف بالشرقي
واسمه عمير بن شبيب .

(٢) خلعت عليه جماها : ألبسته جماها وكسته به .

(٣) حد السيف : شفرته وجانبه الماضي . الحد : الفاصل . يبيض الصفائح :
السيوف . سود الصفائح : الرسائل والكتب . من السيف : صلبه . جلاء الشك :
كشفه وإذهابه .

٧٠٠ - بُشِّرَى ؛ فقد أنجزَ الإقبالُ ما وَعَدَا
وكوكبُ المجدِ في أفقِ العلا صَعَدَا (١)

وقول الآخر :

٧٠١ - أبشِرْ ؛ فقد جاء ما تريد
أبَاد أعْدَاءك المُبِيدُ (٢)

وكقول أبي الفرج السَّائِيَّ يرثي بعضَ الملوك من آل بُويَه - أظنه
فخرَ الدولة - :

٧٠٢ - هِيَ الدُّنْيَا تقول بِمِلءٍ فِيهَا
حَدَارٍ حَدَارٍ مِنْ بَطْشِي وَفَتَكِي (٣)

وكذا قول أبي الطيب يرثي أمَّ سيف الدولة :

٧٠٣ - نُعِدُّ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمُنُونُ بِلَا قِتَالٍ (٤)
وَنَرْتِبُ السَّوَابِقَ مَقْرَبَاتٍ وَمَا يُنْجِيَنَّ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي

(١) أنجز : قضى ووفى . الإقبال : قدوم الدنيا بنجرها . كوكب المجد : استعارة
للمولود . الأفق : الناحية من نواحي الفلك ، وإثباته للعلائخيل ، واسم الخازن
عبد الله بن محمد .

(٢) أباد . أهلك ، والجملة دعائية .

(٣) هي : الحال والقصة . تقول بملء فيها : تقول مجاهرة رافعة الصوت ، وطريقه
الكناية ، والدنيا لا تقول ، ولكن بما قدمت من دلائل التغير والتبديل الواضحة
كانت كأنها قالت .

(٤) المشرفية : السيوف المنسوبة إلى مشارف الشام . العوالي : الرماح . المنون :
الموت . السوابق : الخيل السبابة في العدو ، وارتباطها : إعدادها ، مقربات :
مكرمات بتقريب معلقها ومربطها اعتزازاً بها . الخبب : ضرب خاص من السير
السريع .

التخلص

٣٠١ - الثاني : التخلص ، ونعني به الانتقال مما شبب الكلامُ به .
من تشبيب أو غيره إلى المقصود مع رعاية الملاءمة بينهما ؛ لأن السامع
يكون مُترقّباً للانتقال من التشبيب المقصود ! كيف يكون ؟ فإذا كان حسناً متلائماً
الطرفين حرّك من نشاطِ السامع ، وأعان على اصغائه إلى ما بعده ،
وإن كان بخلاف ذلك كان الأمر بالعكس .

مثل للتخلصات
المختارة

فمن التخلصات المختارة قولُ أبي تمام :

٧٠٤ - يقول في قُومَسٍ قُومِي ، وقد أَخَذَتْ
مِنَا السَّرَى وَخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ : (٢)
أَمْطَلَعَ الشَّمْسُ تَبْغِي أَنْ تَوْمَ بِنَا ؟
فقلت : كَلَّا ، ولكنْ مَطْلَعُ الجُودِ
وقول مُسْلِمِ بنِ الولِيد :

٧٠٥ - أَجْدَكَ مَا تَدْرِينْ أَنْ رَبَّ لَيْلَةٍ
كَانَ دُجَاهَا مِنْ قُرُونِكَ يُنْشَرُ ؟ (١)
سَهَرْتُ بِهَا حَتَّى تَجَلَّتْ بَغْرَةٌ
كَغُرَّةٍ بِحِي حِينَ يَلْدَكُرُ جَعْفَرُ

(١) قومس : موضع جهة خراسان . أخذت منا : نالت منا وأثرت فينا .
السرى : السير ليلاً . المهرية : الإبل المنسوبة إلى مهرة . القود : جمع قوداء وهي
الذلول المنقادة ، أو طويلة الظهر والعنق . تؤم : تقصد . كلا : هي هنا لرد الكلام
السابق .

(٢) أجذك : يصبح أن يقرأ بفتح الجيم وبكسر ها ، وهنا استفهام وقسم ،
والأصل « يجذك أما تدرين أن رب ليلة - إلخ » فحذف حرف الجر فانتصب المقسم به
على نزع الخافض ، والجد بالفتح البخت والحظ ، وبالكسر الاجتهاد في الأمر ، وضد
الهزل ، والشيء المحقق . دجاءها : ظلمتها . قرونك : ذوائبك . تجلت : انكشفت
وانجلت . بغرة : بشمس .

وقول أبي الطيب يمدح المغيث العجلي :

٧٠٦ - مرّت بنا بين تربيّتها ، فقلت لها :
مِنْ أَيْنَ جَانَسَ هَذَا الشَّادِنُ الْعَرَبَا ؟ (١)

فاستضحكت ، ثم قالت : كالمغيث يُرى
لَيْثَ الشَّرَى ، وَهُوَ مِنْ عَجَلٍ إِذَا انْتَسَبَا

وقوله أيضاً :

٧٠٧ - خَلِيلِي ، مَالِي ! لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ
فَكَمْ مِنْهُمْ الدَّعْوَى وَمِنِّي الْقَصَائِدُ ؟ (٢)
فَلَا تَعْجَبَا ، إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ
وَلَكِنْ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدٌ

* * *

٣٠٢ - وقد يُنتقل من الفن الذي شُبِّبَ الكلامُ به إلى ما لا يلائمه ،
ويسمّى ذلك الاقتضاب ، وهو مذهب العرب الأوّل ، ومن يليهم
من المُخَضَّرَمِينَ ، كقول أبي تمام : (٣)

٧٠٨ - لو رأى الله أن في الشَّيْبِ خَيْرًا
جَاوَرَتْهُ الْأَبْرَارُ فِي الْخُلْدِ شَيْبًا
كَلَّ يَوْمٍ تُبْدِي صُرُوفُ اللَّيَالِي
خُلُقًا مِنْ أَبِي سَعِيدٍ غَرِيبًا

-
- (١) تربيها : قرينتها أو لَدَيْهَا اللَّتَيْنِ وَلَدَتَا مَعَهَا . الشادِن : الظبي الصغير . ليث
للشّرى : أسد من تلك المأسدة المعروفة بجانب الفرات . عجل : قبيلة .
(٢) مالي : استفهام تعجبي . الدعوى : الادعاء .
(٣) هذا مثال للاقتضاب مطلقاً ، وأبو تمام من الشعراء المحدثين .

فصل الخطاب

٣٠٣ - ومن الاقتضاب ما يقرب من التخلُّص ، كقول القائل بعد حمد الله « أما بعد » قيل : وهو فصلُ الخطاب .
 وكقوله تعالى : « هذا ، وإنَّ للطَّاعِينَ لَشَرَّ مَنَاقِبٍ » (١) أي : الأمر هذا ، أو هذا كما ذكر .
 وقوله تعالى : « هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَنَاقِبٍ » (٢) .
 ونحوه قول الكاتب : هذا باب ، هذا فصل .

* * *

الانتهاء

٣٠٤ - الثالث : الانتهاء ، لأنه آخر ما يعنيه السمع ، ويترتبه في النفس ، فإن كان مختاراً كما وصفنا جبراً ما عساه وقع فيما قبله من التقصير ، وإن كان غير مختار كان بخلاف ذلك ، وربما أنسى محاسن ما قبله .

فمن الانتهاءات المرضية قولُ أبي نُواس :

٧٠٩ - فَبَقِيَتْ لِلْعِلْمِ الَّذِي تُهْدِي لَه
 وَتَقَاعَسَتْ عَنْ يَوْمِكَ الْأَيَّامُ (٣)
 وقوله :

٧١٠ - وَإِنِّي جَدِيرٌ - إِذْ بَلَغْتُكَ - بِالْمُنَى
 وَأَنْتَ بِمَا أُمَلْتُ مِنْكَ جَدِيرٌ (٤)

(١) الآية ٥٥ من سورة ص .

(٢) الآية ٤٩ من سورة ص .

(٣) بقيت للعلم : دعاء . تهدي له : أصل معناه تقدم له الهدايا ، والمقصود تكميمه بإكرام أهله . تقاعست : قعدت وتأخرت عن بلوغ يومك .

(٤) جدير : حقيق وأهل لها . إن تولني : إن تمنحني . والبيتان لأبي نواس أيضاً

فإن تولني منك الجميل فأهله
ولاً فإني عاذر وشكور

وقول أبي تمام في خاتمة قصيدة فتح عمورية :

٧١١ - إن كان بين صروف الدهر من رحيم
موصولة ، أو ذمام غير مقتضب (١)

فبين أيامك اللاتي نصرت بها
وبين أيام بدر أقرب السب

أبقت بني الأصفر المراض كاسمهم
صفر الوجوه ، وجلت أوجه العرب

أحسن
الانتهاءات

٣٠٥ - وأحسن الانتهاءات ما آذن بانتهاء الكلام ، كقول الآخر :

٧١٢ - بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله
وهذا دعاء للبرية شامل (٢)

وقوله :

٧١١ - فلا حطت لك الهيجاء سرجاً
ولا ذقت لك الدنيا فراقاً (٣)

(١) رحم : قرابة وصلة . ذمام : عهد . مقتضب : مقطوع . بنو الأصفر :
للروم . المراض : الشديد المرض والعله . جلّت أوجه العرب : حلثها وأظهرتها .
والمراد أن أيام نصره هذه أخرت الروم وأحزنهم ، وشرفت العرب وسرهم ، وكان
لكل في وجه صاحبه علامة .

(٢) الكهف هنا : الملجأ والملاذ . وينسب هذا البيت للمعري ، وللمنتي .

(٣) الشطران دعاء للممدوح . حطت : أنزلت . الهيجاء : الحرب ، ومراده
لا أعجزك الحرب ولا خذلتك ، أي لا عجزت فيها ولا نبيل منك .

وَجَمِيعُ فَوَاتِيحِ السُّوَرِ وَخَوَاتِمِهَا وَارِدَةٌ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِهِ
الْبَلَاغَةِ وَأَكْمَلِهَا ، يَظْهَرُ ذَلِكَ بِالتَّأَمُّلِ فِيهَا ، مَعَ التَّدَبُّرِ لِمَا تَقْدِّمُ مِنَ
الْأَصُولِ .

وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلْخَيْرَاتِ

انتهى الكتاب بحمد الله وعونه



الفهرست

الموضوع	صفحة
مقدمة	٥
الفصل الأول:	
علم البديع وأهم رواده	٧
١ - البديع لغة واصطلاحاً	٩
٢ - ظهور علم البديع وأهم رواده	١١
الفصل الثاني:	
معالم البديع في أدب القدماء والمحدثين	
١ - أولاً: معالم البديع في أدب القدماء	٤١
ثانياً: معالم البديع في أدب المحدثين	٥٦
الفصل الثالث:	
أنواع البديع (المحسنات المعنوية والمحسنات اللفظية)	
أولاً: المحسنات المعنوية	٦٧
١ - المطابقة	٦٧
٢ - إيهام التضاد	٦٧
٣ - المقابلة	٧٠
٤ - مراعاة النظير	٧٢
٥ - التفويف	٧٤
٦ - الاستطراد	٧٥
٧ - الاطراد	٧٦
٨ - التورية	٧٧

٨٢	٩ - المبالغة
٨٩	١٠ - الايغال
٩١	١١ - التقسيم
٩٤	١٢ - الجمع
٩٤	١٣ - التفريق
٩٥	١٤ - الجمع مع التفريق
٩٦	١٥ - الجمع مع التقسيم
٩٧	١٦ - الجمع مع التقسيم والتفريق
٩٧	١٧ - تأكيد المدح بما يشبه الذم
١٠٠	١٨ - تأكيد الذم بما يشبه المدح
١٠١	١٩ - المذهب الكلامي
١٠٤	٢٠ - الالتفات
١٠٦	٢١ - أسلوب التحكيم
	ثانياً: المحسنات اللفظية
١٠٩	١ - الجناس
١٢٠	٢ - رد العجز على الصدر
١٢٥	٣ - لزوم ما لا يلزم
١٢٧	٤ - السجع
١٣٣	٥ - الموازنة
	نموذج في التراث:
١٣٧	من كتاب الايضاح في علوم البلاغة
١٤٩	الفهرست

